مؤلفات يحيى حقي

٢٨

كناسة الدكان

إعداد ومراجعة
فؤاد دوارة



كناسة الدكان

مؤلفات

يحيى حقي

٢٨

كناسة الدكان

المقالات الأدبية - ٩

إعداد ومراجعة

فؤاد دوارة



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩١

(١)

من عــالم الطفولة

شـقشقة الفجـر

من فضائل رمضان أنه يتيح لعدد كبير من الصائمين أن يتذوقوا بعد السحور متعة فترة تفوتهم هم وأغلب الناس بقية العام لأنهم من حزب نوم الضحى ، فيهم من يسـهر اضطرارا لأنه من الكادحين ، وفيهم من يسهر دلعا لأنه من عشاق الليل أعداء الشمس . انها شقشقة الفجر ، يا له من جمـال ، أعجب كيف يغفل كثير من الناس عنها ، ليس الا عندها يمتلىء القلب ، بأقصى ما يقدر عليه من الاحسـاس بعظمـة الخـالق ، بروعة الكون ، بالتشوف للطهر ، بالانبهار بالجمال .

ومن العجيب أن « القرآن الكريم » منتبـه لشقشقـة الفجر ، متيم بجمالها ، أنه أقسم بالفجر « والفجر . وليـال عشر » ، ربط بينه وبين صـدق النية وصفاء الروح : « ان قرآن الفجر كان مشهودا » رسمه على لوحة مبهجة الألوان بخيط أبيض وخيط أسـود ، ما أعجب رعشة هذه اللحظة من الزمان .

الآن لا أشـهد شقشقـة الفجر مرة الا ردتنى بقوة الى ذكريات طفولتى ، دنياى حينئذ هى دنيا المسموعات لا المرئيات، بالليل أسمع دقة نبوت الخفير على الأرض فلا ينفع الأمن المراد لها أن توحى به الا فى اثارة مخاوف من القوى الشريرة المبهمة التى تتربص بنا فى الظلام ، الجن والعفاريت والست المزيرة، والبغلة التى تصطنع الوداعة ولود وتستدرجك لتركبها فاذا تحامقت ونسيت المواعظ علت بك درجـة حتى تبلغ عنـان السماء ، فأنت فى خطر أن تدوخ فتهوى الى الأرض ويندق عنقك ، ثم يشق الصمت صـوت مرعب يخفق له قلبى خفوقا مؤلمـا ، صوت البومة ، أم قويق ، ربيت على أنها نذير خراب وقرب هبوط ملاك الموت على الأرض ، لا يعود للسماء الا وفى جعبته روح انسان . أدعو الله فى سرى ألا يكون المخطوفـة روحه واحدا من أهلى ، وكأنى وثقت باستجابة دعائى ، فأسأل : ترى أى الجيران سيقع عليه الدور ؟ اننى أرثى له ولأهله حتى ولو كان بعد سابع جار .

وصـوت البومة من طبقتين مختلفتين بينهما فاصـل ، أولا خافت يشبه الأنين يبعث فى قلبى الحزن مع الخوف ، هذا والله هو البكاء بعينه ، ثم فجـأة صرخة قصيرة حادة قاسـية متوحشة ، لونها فى أذنى لون الدم ، وكنت لا أعرف حينئذ أنها هى صرخة الانتصار حين تنقض على قنيصتها ، ولكنهـا كانت تجعلنى أحس احساسا عميقا مبهما بأن العالم الذى أعيش فيه

يسوده قانون صـــارم لا يرحم : قانون الافتراس ، صراع بين القوى والضعيف ، اما آكل واما مأكول ، كنت أرتعب من أن أكون من المـــأكولين ، وان بقيت غير واثق كل الثقـــة أننى سأكون من الآكلين ، كنت على غير علم منى أمتحن قدرتى ، بين الوثوق والشك . لعل هذه اللحظة من التردد صحبتنى فيما بعد طول عمرى .

وحين كبرت وقرأت الشعر الانجليزى هالنى — نعم ، أقول هالنى فهذا أصدق وصف لحالى — أنى وجدت صوت البومة عنده غير كريه ، لا ينذر بخراب أو موت ، يسلكه بين بقية أصـــوات الطير الأنيسة ، ويرى فيها احدى صلات الانسان بأسرار الكون وجماله ، فهتـــاف المخلوق للخـــالق ، دعـــاء وتسبيح ، كيف يمكن اذن أن يقوم تفاهم بيننا وبين الانجليز ؟

ولكن مهلا مهلا ، كل هـــذه المخاوف ستزول ، سيكون لها عوض جميل ، سيأتى به الفجر . وستنقضى عنده الغمـــة ، سيصل الى سمعى صـــوت حلو مرتين مرة لأنه بعيد ، ومرة لأنه يملأ قلبى بالفرح والخشوع معا ، انه صـــوت المؤذن : الله أكبر الله أكبر حينئذ أحس بأننى فى حوزة رب قدير ورحيم معا ، صـــوت المؤذن هو الذى يبدد عندى الظلام والمخاوف . وها هو ذا بشير آخر بالصبح ، انه صـــوت الديك . يؤذن لى هو أيضا من على سطح قريب ، كأنه يقول : اصح يا نايم .

صدقنى ، لا أزال أذكر بوضـوح صوت هـذا الديك العجوز زميل طفولتى ، صوت أجش كأن صاحبه من مدخنى الجوزة . وكم كان يطربنى الفرق بينه وبين أول آذان للديوك الصغيرة حين تبلغ أشـدها وينبت طرف عرفها الأحمر ، صوت رقيق ناعم لطفل يبدأ تعلم الكلام ، ويبلغ سمعى أحيانا صوت طائر نسميه بالسقساقة ، هو بشير خير ، ينبىء عن قرب حضور ضيوف أعزاء ، أقارب أو أغراب ، هى طائر ضامر مسحوب كالسهم ، وربما بلغنى أيضا صوت طائر آخر كنت أراه يجمع بين الفكاهة والوقار ولكن دون أن أصـدق فكاهته أو وقاره ، وهذه هى مأساته ، انه صوت كأكأة الغراب .

بقى من ذرارى الليل وأصواته شبح أسـود ضخم له صرخة حادة أيضا ، ما مرق مرة أمام النافذة وقد فرد جناحيه العريضين الا فزعت ، انها الحـدأة ، خطافة الكتاكيت وبضاعة بائـع جوال يحملهـا على رأسـه وينـادى فى الطرقـات : « يا جابر ! » .. انه بائع لحم الرأس ، كل طائرة حديثة هى من سلالة الحدأة . وكنا نعجب لقول يردد علينا بلهجة التأكيد المؤيدة بالمشاهدة أن بالاسكندرية طلسما يحرمها على الحدأة ، فسماؤها خلو من هـذا الطير الجارح . ولا أعرف الى اليوم مبلغ الصـدق فى هذا القول . واذا لم يصدق فمن أين أتت هذه الشائعة وما سببها ؟

رويت لك ذكريات طفولتى الملفوفـة فى قماط من عـالم الأصوات ، قصدت بها أيضا أن انبه الشباب عندنا الى هواية جميلة منتشرة فى البلاد المتحضرة ، بل يتعشقها رجال وقورون فى أعلى الدرجات من السلم الاجتمـاعى ، انها تتيح لشبابنا التزود من العلم والانتباه لأسرار الخلق وجماله ، فعند أبنـاء كل بلد متحضر هواية دراسـة طيوره ، مقيمها ومهاجرها ، معرفة طبائعها وعاداتها فى الطعام والعشق وتربية الأولاد ، فرز أصواتها وأعشاشها وبيضها ، تباين أحجامها وألوانها ، لو فعلوا لوجدوا فى هذه الهواية أكبر النفع واللذة معا ، أم تراهم ــ كما فعلوا فى أشياء أخرى كثيرة ــ يتركون ذلك للأجانب النازلين بديارنا ؟

(« التعاون » ، العدد ٢٥١ ، ١٩٦٧/١٢/١٠ ، ص ١٠)

جـانب الرهبـة ..

عن طريق الأذن لا العين بدأ فى طفولتى احساسى بتلك اللحظة الجميلة الرهيبة معا : مولد الفجر وتردد أوائل أنفاسه ، فلا قيام للأسرة كلها من الفراش ، ولا فتح الشيش لأنه جرح للخلوة عندنا وعند الجيران ، ولا خروج الى الطريق الا والشمس قد علت قصبة ونصف على الأقل ، (هـذا القياس من قبيل التحسر على أننى كنت لا أسكن الريف) .

هكذا حال أغلب الأسر التى يعولها موظف فى ديوان ، أطبقت على مسكنه جدران العاصمة ، وضمان الرزق وانتظامه ، ثرية مستكفية ترعرع فيها ميله الى التكاسل .

وربما أيضا عن طريق الأنف ، فحتى فى الشتاء والنوافذ مغلقة باحكام تحس هى الأخرى بطعم الفجر حين يتسرب اليها رغم السدود هواء كأنما انعدم وزنه ، رق ولطف وترطب ، تطهر وتطيب فيكاد الفم يذوق أيضـا حلاوته ، انه نشوة بلا خمر ،

ولكن الاعتماد كله على الأذن ، القابعة داخل أسوار الجدران المطبقة ، المنتبهة ، المفنجلة ، لواقفة على ذنبها — كما تقول العامة — من فرط اللهفة والتحفز .

واذ غابت رؤية العين فقد انطلق الخيال واشتط فى شروده ، وتوهم كائنا ما لم يكن ، وكانت له تهاويل تقيم بدل الحقيقة حقيقة من عندها لا تقل عنها اقناعا وصدقا ، ولأن الطفولة هى فترة التملص الى الالف والثقة والاطمئنان — ولو انصياعا أو صلحا — من قبضة الحيرة والشكوك وتتابع امتحان الأشياء والمعانى والرموز ، من قبضة عالم الأسرار المجهولة ، لا حديث معه ، أخذا وعطاء الا بلسان الخوف ، فان الخيال هو الذى تكفل بتضخيم جانب الرهبة بخسا بجانب الجمال فى لحظة مولد الفجر وتردد أول أنفاسه ، فانفلات مكاننا فوق سطح الكرة الأرضية من بحر الظلمات الى النور يصحبه احساس الصدور بثقل كتلتها الضخمة التى تجثم عليها ، كأنما « فوق » أصبحت « تحت » احساس بدورانها حول محورها ، هذه الرحى أى شىء تطحن غير العظام واللحم منا ، أحتم ألا تخف عن سمعنا الا اذا كفت هى عن الدوران ؟

احساس — لفترة — بأن المدينة الكبيرة وحش مهول ، كفانا نومه بالليل شره ، ها هو ذا يهم بالصحيان ، انه ساذج شرس معا ، ولأنه ساذج فشراسته حمقاء ، وغير مأمونة . وقد

تثور لأوهى الأسباب ، ومرة انها أرض معركة ، قطع الليل فيها القتال ، وها هو ذا يوشـك أن يتجدد مع أول شعاع للشمس، قتال بين آلاف من الجيوش ، وكل جيش قوامه فرد واحد ، مدجج بالسـلاح ، يا قاتل يا مقتول ولا ثالث للاحتمـالين ، ولو فرضنا المستحيل وساد السلم فانه هدنة بين معركتين .

ليس بالقليل جدا ولا بالكثير جدا عدد الأصوات التى تمشى بين يدى الفجر لتعلن عن مقدمه وترحب به بصوت انسان (المؤذن) ، وصـوت حيوان (صياح الديك وزقزقة الطير وتسبيحة الكروان) هى التى تتكفل بزف الجمال فى مولد الفجر الى أذنى ، أما جانب الرهبـة فكان يتكفل بها — ولا عجب — صوت للحديد ، صوت احتكاك عجـلات بقضيب ، كانت أذنى تبعد بالنهار كثيرا وبالليل قليلا عن مهبط مسجد السـلطان حسن ، حين يبلغه الترام القادم من شارع محمد على يستدير الى اليمين بقوة الزاوية القائمـة ليعيد من ورائه المسجد الى ميدان القلعة ، فيـكون لاحتـكاك العجـلات بالقضيب عند الاستعادة صوت حاد ، لا أسمعه بالنهار ولكنه يطعن أذنى مع أول ترام يولد مع الفجر ، فتكاد تجز له أسـنانى — صرير معدنى ، حاد ، فج ، سمج ، بلا حياء ، قاس ، كأنه شحذ سكين للذبح ، هـذا ولا ريب أول صليل السيوف وقد بدأت المعركة، وعجل الترام هو اختصار للرحى التى تطحن منا اللحم والعظم .

حينئذ يتغلب فى قلبى صوت على صوت ، الصوت المغلوب كان يهمس لى : لا تخف ، ان الله رازقك كما يرزق الطير ، تمضى خماصا وتعود بطانا لأنها مؤمنة متكلة على ربها ، خالقها ، انه بها رحيم ، والصـوت الغالب يفرخ لى : ليس فى يـدك ضمـان ، فلا اتـكال لك اذن الا على نفسـك وسـعيك ، والا لسقطت على الأرض وداستك الأقدام ومضغت الأنياب قبل سيرتك لحمك .

ولكن ما يكاد صوت المؤذن يصل الى سمعى من بعيد حتى ينعكس الحال فيصبح الغالب مغلوبا والمغلوب غالبا .

(« التعاون » ، العدد ٣٥٥ ، ١٩٦٩/١٢/٧ ، ص ١٠)

طـائر الرهبـة ..

عن طريق الأذن لا العين يتولد احساس الطفولة بأن عالم المرئيات ملفوف بعالم آخر خفى ، لا تفض أسراره .. مخيف ، مخلوقاته لا نراها رأى العين بل تمثل فى تصورنا بالسماع عنها ، الغول . أبو رجل مسلوخة . الست المزيرة . بغلة العشرى . الجن . العفاريت . الأخت المقيمة تحت الأرض . كذلك كان لقاؤنا برهبة الموت وامتناع سره عن الفهم . لا تتحرك شعرة فى رؤوسنا لرؤية الجنازات أو سرادق المآتم . أو لطم الخدود ، هذا شىء مزعج ولكنه غير مخيف ، لقد تكفل صوت مميز ـ لا نسمعه الا ليلا ـ بأن ينقل الينا الاحساس برهبة الموت ولغزه فى عنف شديد .

ها أنذا راقد فى الفراش فى حضن أمى ، أنعم بلذة الشعور بالانتماء ، بالحنان ، بالطمأنينة ، بدوام الدائم ، الدنيا والعمر ، ربما بين اليقظة والمنام . وفجأة ، تتحفز أعصابى وكل قدرتى على الانتباه والانصات . كل ذخيرتى من التوجس.

حين يصل أذنى وسط السكون صوت خافت ، مديد الى قدر ، متكرر على مهل .. لا أدرى كيف أصفه : أنين قلب مسكين ؟ فحيح حشرة من الزواحف ، زومــان متــآمر يتلمظ بشــهوة الانتقام ، تلاوة ورد من متعبد ؟

من أجل هذا كان من المستحيل أن أحكم هل هو حلو أم بغيض ، ولكن لى به خبرة سابقة ، فلا أعرف صوتا يدانيــه فى القدرة على بث الرهبــة والخوف فى قلبى لأنه هو الذى يؤذن بما سيتبعه من صرخة حادة عنيفة تشق الهواء فتنبىء أن المخالب قد شقت أيضا صــدر ضحية ، صرخة وحش مفترس قاس ، أتصوره حينئذ وقد تقلصت شفتاه وكشر عن أسنانه ، لمعت عيناه ببريق النصر ، بلذة غمد السيف فى قلب العدو ، انه قتل بانقضاض مفاجىء ، وعلى حين غرة من الضحية ، ولا يفوت أذنى أن تلقط من حشايا هــذه الصرخة صوت وصوصة خافتة ، ضئيــلة العمر ، كنت أول الأمر لا أتبين سرهــا ، ثم أدركت بالتجربة والتكرار انها آخر أنفاس الضحية بين المخالب المخضبة بالدمــاء .

تهب أمى فزعة من رقادها . تستعيذ بالله . تناشد الشر أن يبقى « برة » وبعيدا ، وتسأل فى توجس شديد : ترى على من وقعت قرعة الموت التى تنبىء عنها هــذه الصرخــة ؟ فى بيتنا ؟ لا . لا . عسى أن يكون على أحد بيوت الجيران ، لا القريبة ، بل البعيدة .

هذه هي صرخة البومة ، التي كانت أول من حدثني عن الموت ورهبته ولغزه • وحتى لو لم تكن البومة نذير الموت فهي نذير خراب : كان الحي الذي سكنته ــ وربما البلد كله ــ مهددا باعصــار كاسح ، سيخلع السقوف ويقوض الجدران ، وتصبح البيوت خاوية على عرشها ، وستجر العاصفة وراءها أكداسا من الرمال تنحط وتتعالى حتى تبلغ أعلى الشواهق • لا يبقى في اللوحة الا لون واحد هو اللون الأصفر •

لم أرهب عزرائيل رهبتي لصوت البومة ، ورغم دوام المدافعة على طول العمر المديد لم أشف الى اليوم من هــذه الرهبة تمام الشفاء •• ولكن صبرا ، صبرا •• ان هذه الرهبة لن تلبث حتى يبددها صوت آخر •• صوت جميل هذه المرة •

(« التعاون » ، العدد ٣٥٦ ، ١٩٦٩/١٢/١٤ ، ص ١٠ ، ٩)

رسائل من عالم مجهول ..

أرادوا لى وأنا طفل أن أؤمن كما آمنوا فآمنت بأن هـذا الطائر الذى نسميه بالسقساقة (ولا أعرف حقيقة اسـمه الى اليوم) اذا زقزق وهو يرف بجناحين من وراء نافذتنا فمعنى هذا أنه يحمل الينا رسـالة تقول ان ضيفا سيقدم الينا على غير انتظار منا ، سيدق الباب فاذا صحنا : « من ؟ » رد علينـا انسان لا نتوقعه . ولا تقول رسالة السقساقة هل سنسر لمقدمه أم لا نسر ، هـذه مسائل غـير داخلة فى اختصاصـها . لعل تصرفات البشر تبدو للسقساقة فى غاية من البلاهة أو اللؤم ، فتزدريها ولا تشغل نفسها بها .

وأن كأكأة الغراب (الطائر الوحيد الذى يخيل اليك من حركة رقبته اذا صاح أنه يتقيأ) تنبىء بالفراق وتشتت الأسرة ، وأن نعيق البوم بالليل نذير بأن ملك الموت عزرائيل يحوم حول الحى كله ليخطف روحا انتهى أجلها ، كنت أدعو الله من كل قلبى أن يتخطى منزلنا ويمضى حيث شاء ، ثم أشـعر بخجل

لأننى بعت جميع الجيران ــ غدرا ــ بيع السماح ، مع أن النبى أوصى على سابع جار ، الى اليوم ينقبض قلبى لنعيق البوم •
ولكننى لما كبرت دهشت أشد الدهشة أن وجدت نعيق البوم موصوفا فى الشعر الأوربى بأنه هتاف رقيق ، حقا ان هؤلاء الأقوام من جنس غير جنسنا •

آمنت أيضا أن الشبشب اذا انقلب رأسا على كعب فمعنى هذا أن أحد أفراد الأسرة سيخرج الى سفر ، وأن « البورص » اذا تسلق أحد جدران المنزل ولبد عليه وأطلق صوتا كأنه حس المكارى لحماره فلابد لى أن أصيح فى وجهه : « صاحب البيت اسمه محمد » وقاية لشره ، بشفاعة الرسول ، لأنه اذا مس الملح وأكلنا من طعام خالطه هذا الملح فلابد أن تصاب يدنا بمرض البهاق ، فتغطى جلدها بقعة مشرذمة الحوافى من لون أبيض كالح ، واللون الأبيض لا يصبح دميما الا بجريرة هذا المرض وحده ، يهوى أحيانا قبقاب متيم بالقسوة وحب الأذى ، عاق لأمى وعاص لنصحها بترك هذا الضيف يمضى لحال سبيله ، فينقطع الذيل ، ويظل هذا الذيل المقطوع يتحرك ويتلوى أمامى (وبقية الجسد ـ يا للغرابة ــ خامد) وأنا أتأمل الذيل بدهشة لا حد لها ، هذا أول شذوذ يخرق قاعدة ربيت عليها ــ بأن الحركة هى الفرق بين الموت والحياة ، هل هذا الذيل حى ؟ هل هو ميت ؟ هذا سؤالى الذى لا يهدينى

أحد الى جوابه ، هل بعض الحيوان يكمن روحه فى ذيله ؟ ربما ، هكذا كنت أقول لأخرج من حيرتى •

وآمنت بالجن ، والعفاريت ، والست المزيرة ، وبغلة العشرى ـ تقابلك فى ليلة مقمرة (هذا هو الشرط) وتغريك بركوبها فاذا فعلت علت بك حتى تبلغ السماء ثم تلقيك عنها فتهوى وتلقى مصرعك ، وآمنت كذلك أن لى أختا تسكن الأرض (كم تمنيت أن أراها رأى العين •• هذه الأخت العزيزة) وأن بعض الرجال متزوجون من نساء من الجن ، وبعضهم من حوريات البحر ، الزوجة نصفها الأسفل سمكة ونصفها الأعلى امرأة ، فلها ثديان كنساء البشر •

وكنت قبل أن أنام أحلم فى بعض الليالى ـ وفى لذة كبيرة ـ بأن امرأة من الجن خطفتنى وأنزلتنى قصرا وردى اللون فى كهف سحيق ، قصر مسحور ، ففيه سكينة متخلفة من ألف صرخة موءودة ، ونسيم عليل انطلق كالروح الرضية بعد آخر شهقة من لهاليب من النار كانت تتواثب كأنها فى رقصة باليه ، زوجتى تتقد عيناها كالخمر وهى تقبلنى ، ولكنهما تشعان باشتياق وحب واعزاز لا تقدر عليها امرأة من البشر ، وهى شديدة الغيرة على ، تأخذ منى المواثيق ألا أفشى سرها اذا عدت الى سطح الأرض ، وأن أظل وفيا لها ، فلا أخونها مع امرأة ولو كانت بين الناس هى ست الحسن والجمال ،

أما عقاب الخيانة فزلزلة فى عقلى فألتاث ، فلا أنا عاقل ولا أنا مجنون ، أو أحلم بأن حورية من البحر قد قادتنى الى قصر أزرق اللون فى قاع المحيط ، كأن جدرانه من البللور ، جمد فيه من البرد كل شعور ، حتى الشعور بالبرد .. زوجتى النارية تكلمنى ، أما زوجتى المائية فخرساء ، ربما من خجل لأنها لم تف لى بكل عهود الأنثى ، لأن نصفها الأسفل سمكة ، من أجل هذا زاد حدبها على ، لا تدرى أى أطايب طعام البحر تقدمه لى ، أما زوجتى النارية فلا تسأل عن طعامى وشرابى ، حقا انها امرأة يدل عليها خلقها الشرانى وهيهات أن تتنبأ بخطواتها التالية .. وكنت أقول عن حورية البحر ، خرساء خرساء ، لا بأس ، فان أكبر لذة عند العشاق هو التخاطب بالعيون .

آمنت بهذا كله ، لا تقليدا فحسب ، بل بلذة وطرب شديدين ، اننى لا أنقى عليهم حشو دماغى بهذه السخافات كلها ، بل أشكرهم كل الشكر عليها ، كم كانت طفولتى بدونها تبدو لى تافهة مملة سقيمة ، محدودة العقل بليدة الحس ضيقة الأفق . فبفضل هذا التلقين وجدتنى أدفع دفعا وأنا فى سن مبكرة الى الانتباه الى أن عالمنا محوط بأسرار كثيرة لا نعرفها ، وأن وراء الصورة التى تتراءى لحواسنا صورة أخرى نجهلها فلم ينقطع لى منذ ذلك الوقت تساؤل عن أسرار الحياة

والكون والعجب لها ، والعجب هو علامة يقظة العقل والروح ، انه نشوة لا تماثلها نشوة أخرى ، ولما كبرت وقرأت أن بعض علماء الفلك يقولون ان عالمنا هـذا هو صـورة معكوسـة (كأنما فى مرآة) لعالم آخر بدت على فمى ابتسامة رضا وعاد لى جو طفولتى بكل براءته وحيرته وتعجبه •

(« التعاون » ، العدد ٢٨٨ ، ١٩٦٨/٨/٢٥ ، ص ١٠ ، ٩)

يمــين وشــمال ..

ربيت أيضا فى طفولتى على الايمان بأن اليمين رمز للخير والشمال رمز للشر ، والى اليوم لابد لى أن أدفع بقدمى اليمنى قبل اليسرى اذا لبست البنطلون أو الحذاء أو اذا خرجت من البيت أو دخلت مكانا أرجو فيه خــيرا لى ، أستبشر باليمين وأتطير بالشمال ، واليمن مشتق من اليمين ، واليمن هو الخير والبركة والقوة .. والشمال فى القاموس هو الشؤم .. وليس للكلمتين مصــدر واحد كما فى اليمن واليمين .. أو قل ربما دل وجود حرفى الشين والميم فى الكلمتين على وجود مصــدر قديم ضاع ، هو الأصل فى اشتقاقهما .

وواضح أن التفاؤل باليمين ترتب عليه التشاؤم بالضــد وهو الشمال ، وهذا من سوء حظ كلمة الشمال وكل ما تمثله.. وأعتقد ــ وان لم تكن تحت يدى مراجع ــ أن هــذا التفريق بدأ حين أدرك الانسان لأول مرة معنى الطهارة والنجاســة ، حكم بأن هناك أشياء طاهرة ــ كالمــاء ــ وأشياء نجسة كجثة

الميت ، فخصص يده اليمنى لتناول الأشـياء الطاهرة ويده اليسرى للمس الأشياء النجسة ، وبدأ يتبارك بيده اليمنى وأخذ يعمل بها أكثر من عمله بيده اليسرى ، هـذا تعليل لا يشفى الغليل لأن السؤال لايزال قائما : لمـاذا اختار اليمين مثلا ــ دون اليسار ــ للطهارة والعمل ؟ • هـذا الانسان البدائى العبقرى الذى عـرف كيف يأتى بالمعجـزات : الزراعـة ــ استئناس الحيوان ــ اشعال النار ــ التعبير عن نفسه ــ الرسـم على جدران الكهوف ــ لا تزال حياته محاطة بالغموض •

ومما ساعد على هذه التفرقة بين العضو اليمين والعضو الشمال أن ظاهر جسد الانسان مقام على قانون الثنائية وتطابق الجزئين مع تعاكسهما ، كأنه باب من ضلفتين متماثلتين متعاكستين ينشق من منطقة على خط يخرج من وسط الجبهـة الى سـن عظمة الأنف ، ويمتد الى الصرة حتى العصعوصة فى نهاية العمود الفقرى ، وبقيت الساقان متدليتين ولكنهما خاضعتان للقانون ذاته •• فكل ما تجده على يمين هـذا الخط تجده معكوسا على يساره ، كأنه صورته فى المرآة • وأحب أن أذكرك هنا بما فعله الفنان الفرعونى حينما رسم جسـد الانسـان على الجدران •• رسم الرأس منظورة اليها من جانب (بروفيل) ونظر الى الجسد منظورا اليه من أمام • فلما جاء لرسم القدمين جعلهما فى صـورة واحدة •• كلاهما قدم شمال •• أى الابهام هو آخر أصبع فى يمين القدم اليمنى واليسرى •• ولكنـه فى

النحت التزم ــ بطبيعة الحــال ــ النقل بصدق عن الواقع .

هذا هو قانون ظاهر جسد الانسان (التماثل وتعاكس الجزئين) ولكن اذا فتحنا بطنه ونظرنا الى جوفه وجدنا هــذا القانون ساريا فى بعض الأعضــاء دون بعض .. فلنا جزءان للرئة متقابلان متعاكسان ، وكليتان ولكن لنا قلب واحد ومعدة واحدة وكبد واحد وطحال واحد .. ما هو سر اختلاف القانون فى الظاهر عن الجوف ؟ .. لا أحد يدرى ان كان هناك منطق جاز لنا أن نقول ان تطور الانسان لابد أن يسير به الى أعمال هذا القانون فى جوفه كما فى ظاهره فيكون له فى يوم قلبــان وكبدان وطحالان ، لأن النقلة الكبيرة فى التطور كانت فى انتقال كائن حى من التطــابق على الجنبين ــ كما فى السمك ورأس الطير الى التطابق والتعاكس من أمام ــ كالحيوانات الثدييــة والانسان ــ أى اجتماع العينين على سطح الوجه بدلا من أن تكون واحدة عن يمين أو فوق وواحدة عن يسار أو تحت .. اعذرنى اذا سرح الذهن فى عجائب صنع الله فلن يســلم من التخريف .. ان عمرا كامــلا ينصرف فى تأمل عجائب خلقــة الانسان ، ينقضى ويبقى العجب على حاله .

أقول ــ عودا على بدء ــ اننى كنت فى طفولتى أتلقى الضرب على يدى الشمال اذا هممت أن آكل أو أكتب بها ، كأننى ارتكبت جريمة فظيعة ، وظللت بقية عمرى لا أشــهد

انسانا يستخدم يده اليسرى دون اليمنى الا انتابنى شىء من القلق والنفور ، وأحسست أن هــذا الأشول مخلوق شاذ ، وخرق فى قانون مستتب ونظام ســائد ، واعتبرته من جنس يختلف عن جنسي •• ولكن النفور يتراخى ويحل محله شعور بالعطف ، أو قل بالرثاء ، وهــذا تفسير ما قلته لك مرة سابقة ، لمــا كبرت وقرأت ان بعض علمــاء الفلك يقولون ان عالمنــا هذا هو صــورة معكوسة (وكأنما فى مرآة) لعالم آخر بدت على فمى ابتسامة رضا وعاد لى جو طفولتى بكل براءته وحيرته وتعجبــه •

(« التعاون » ، العدد ٢٨٩ ، ١٩٦٨/٩/١ ، ص ١٠)

هذا العالم الخفى المجهول ..

اننا نفقد بتجاوز مرحلة الطفولة احساسا غريبا ــ هو لذيذ ومخيف فى آن واحد ــ بأن وراء عالم الواقع الذى نعيشه عالمــا خفيا مبهما ، يحيط بنا ، ويتدخل فى حياتنا ، ويخاطبنا صراحة أحيانا ورمزا أحيانا ، انها خسارة جسيمة ، لأننا نهبط من الروعة والدهشــة والاهتزاز النفسى الى وجــود رتيب وطمأنينــة تافهة مقامة على مسلمات اصطلحنــا عليها ، وقلمــا نناقشها ، وان بقى صــوت ضئيل جدا يهمس لنا بخفوت أن لا ضمان بأنها غير زائفة .. ولكنه صوت غير مزعج ، اذ اننــا درجنا على الاستراحة فى حضنه بتأجيل الاجابة على الأسئلة الى الغد ، ونحن نعلم أن هــذا الغد لن يأتى أبدا . حتى اذا وصلنا الى مرحلة الرجولة تتبعنا بشغف تحسس العلماء لهــذا الواقع الخفى المجهول ، ولكن هيهات لهذا التتبع أن يثير فى

قلوبنا ما كانت تحس به أيام الطفولة من الروعة والدهشة •
الخبز الطـازج أصبح بائتا ، وشتان بين الطعمين •

وقد نشأت فى بيت لا أزعم أنه كان بدعة بين البيوت ، غاية ما أستطيع أن أشعر به هو أن جوه كان يحملنى وأنا فى سن صغيرة جدا على بدء الاحساس بهذا العالم الخفى المبهم •

أتلقاه أحيانا بفزع ، حين أسمع الرعد ، كان أهل البيت يضطربون عند سـماع الرعد ، ويرونه علامة على غضب من الله ، وربمـا تمتمت أمى ببعض الآيات ، واستغفرت الله كثيرا وأنابت اليه •

فكان هذا الرعد من أوائل النوافذ التى أطـل منها الى ما وراء ، وقلبى خائف •• أول صورة ارتسمت فى ذهنى لربنا تمثلت لى فى الرعد ، قابلته أول مرة مع الأسف وهو غضوب • أما أنه رحيم فقد تعلمته فيما بعد بالتلقين • وعشت أحـاول أن تطمس صورته الرحيمة صورته الغاضبة فى قلبى ، محاولة لم تمض بغير جهد •

أتلقى هذا العالم الخفى المبهم بفزع أيضا حين أخـاف من العفريت وأنا طالع السلم فى الظلام ، أو وأنا مار بالليل تحت البوابـة فى الحـارة ، حيث تنتظرنى الست المزيرة ، لم يكن الفزع أن العفريت أو السـت المزيرة سيصيبـانى بشر ، بل

لاحساس بأن عالمنا مسكون بأقوام لا نراهم ، جنسهم ليس مثل جنسنا ، مهما أحكمنا غلق الأبواب والنوافذ فلن نسلم أن يكون معنا مخلوقات لا ندرى من أمرها شيئا •

وأتلقى هـذا العـالم الخفى المجهول بشىء من التلذذ والانبساط حين بصرنى أهل البيت ببعض الرموز ، تدل على أن هناك قوى لا نعرفها تحدثنا بهذه اللغـة الحلوة الظريفـة الذكية ، اذا جاء أمى صوت السقساقة قالت اننا ننتظر ضيفا ، اذا ركبت فردة شبشب على الأخرى قالت : اننا على سفر ، اذا طرفت عينها أو شرقت وهى تشرب قالت : ان انسانا بعيدا يذكرها فى تلك اللحظة ، اذا انكسرت المرآة أو الكوب قالت : انها أخذت الشر وراحت • اذا سمعت صرخة البومة انزعجت وقالت : ربنـا يستر ، وفهمت منها أن هـذا هو نذير الموت ، هنا يعود الفزع فيختلط باللذة •

وتفتح لى نافذة أخرى على هـذا العالم الخفى المجهول وأنا أستمع الى أهل البيت بشغف ودهشة وهم يتحدثون فى الصباح عن أحلامهم بالليل كأن لهم ولعا شديدا براوية هـذه الأحلام بعضهم لبعض • أما عمتى الأرمل التى تقيم معنا فقد تخصصت فيما يبدو ــ فى أحـلام تشـبه الروايات الطويلة المفككة ، بلا روابط بين المشاهد ، فهى تقول لنا : انها رأت نفسها قد دخلت حديقة يانعة ، ليس كمثلها حديقة فى الأرض ،

فيها أناس يلبسون أخضر فى أخضر ، ثم اذا بها فجـأة فى محكمة مزدحمة فشدتها امرأة من يدها ، تطلعت الى وجهها فاذا بهـا هى أمها التى ماتت منذ زمن طويل ، وأنها سارت فوجدت فى يدها طائرا ، انقلب من فوره الى صـورة أبيها مقبل عليهـا بوجه ضاحـك الخ الخ .. كانت عمتى لا تحـاول تفسـير أحلامها ، ليس فيها شىء يستحق التفسير ولكنها كانت سعيدة بهذه الأحلام التافهة ، كأنما تضاعف بها عمرها ، العجب من ذاكرتها التى استطاعت أن تروى هـذا التفكك مرتبا . أما أمى فكانت متخصصة ــ فيما يبدو ــ فى القصص القصيرة ، تروى لنا حادثة واحدة هى كل حلمها ، وكانت تصر على أن هـذا الحلم رسالة موجهة اليها ، فتحاول تفسيره ، ربما رجعت الى كتـاب كنا نعتز به كثيرا هو كتـاب « تفسـير الأحـلام » لابن سيرين .

من هذه التفسـيرات تبينت بشىء من اللذة والانبساط وأحيانا بشىء من الخوف أيضا ــ أن هـذا العـالم الخفى المجهول له لغة غير لغتنا ، فهو يتكلم معنا أحيانا بالضد ، يقول شيئا ويريد عكسه ، لمـاذا ؟ الله أعلم . فالمرض يشير بالعافية ، والافلاس هو الغنى ، والموت طول فى العمر ، ولكنـه يلجـأ أحيانا الى الصراحة القاسية فلا يتكلم بالرمز بل يعنى ما يقوله، لا أنسى انزعاج أمى ذات صباح لأنها رأت نفسها فى الحـلم عارية . قالت : ربنا لا يحكم علينا بفضيحة .

جزى الله « فرويد » — لا أدرى هل أقول — خير الجزاء أو شر الجزاء ، فحين قرأته وجدت تفسيرات معقولة لأحـلام لى كثيرة فى صباى وشبابى ، انها كما قضت على الغموض قضت أيضا على جانب كبير من سحر هـذا العالم الخفى المجهول الذى عرفته فى طفولتى .

(« التعاون » ، العدد ١٨٨ ، ١٩٦٦/١٠/٢٥ ، ص ٨)

الـدودة والانســان ..

هل رأيت مرة لقاء دودة القز بورقة شجرة توت ؟ الدودة قلامة ظفر ، والورقة تقارب الكف ، ومع ذلك فقبل أن يرتد اليك بصرك تكون الورقة قد اختفت عن الوجود ، غارقة فى جوف الدودة ، ولكن كيف حدث هــذا ؟ اننا لا نرى لعاب الدودة وهو يسيل باحتدام شهيتها ، ولا فكيها وهما يطبقان كالكماشــة على طرف الورقة ، ولا ما فى فمها من مصنع هائل ذاخر بالسكاكين والتروس وآلات الفرم والطحين ، لا نعرف هل عيناها تبرقان من شــدة اللهفة أم مغمضتان من فرط التلذذ، ولكننا نشــهد بمتعة كبيرة مثلا فذا رائعا لمعنى الالتهام الذى لا يشبع ، للدأب الذى لا يكل ولا يمل ، لاعتماد حياة قوم على قتل أقوام .

ها هو الخروف قد تم ذبحه ونفخه وخبطه وسلخه ، اذا استثنينا الدم ــ فهو حرام ــ فلن يبقى فيه خير الا كان مآله الى الالتهام ، من أول العين الى الحــافر ، ومن الرقبــة الى

الأمعاء ، الكبد والطحال والقلب والكليتان من الأطايب ، فهى شواء لوجبة الفطور يوم العيد . الفأر أسعد حظا منه . لأن ذيله تعافه القطة . سيبقى كأنه شاهد قبره ، محطما على الأرض ، والقبر يجرى حيث تجرى القطة . أما ذيل الخروف فسيغيب أيضا فى البطون . الأسنان لن تكف الا اذا أذلها برهان أكيد على عجزها ، حين تصطدم بخصم أصلب من صلابتها العاتية ستقضقض القراقيش حتى تنفتت ، وتمضغ .. ستمص النخاع ، ستعالج الغضروف ـ وهو فى قوة الصدف ـ حتى تفصله بالكحت ثم تطحنه وتبلعه . لا تقف هذه الأسنان الا حيث يبدأ وابور الزلط . ان بقايا عظام الخروف لم تنج من هذه الأسنان الا بقدرة قادر .

ولكن فى ركن المطبخ أو الحمام أو السطوح أو الحوش تخلف شىء لايمكن أكله مع الأسف . شىء فارغ . كأنه المظروف الذى بقى فى مكان الجريمة بعد اطلاق الخرطوشة ، هو فروة الخروف . مكومة كأنها معطف القتيل . سقط عنه ملوثا بالدم . المعطف مات هو الآخر بموت حشوه . فبدا كأنه رث . قديم . كهنة . روبابكية . أصبح شاهدا لا على عز صاحبه المرحوم .. بل على بؤسه وفاقته . هو لحافه ووسادته بالليل . ودرعه بالنهار . يلبسه على اللحم . بلا قميص أو جلابية .

ماذا نفعل بفروة الخروف ؟ انها لزجة . وككل شىء لزج

تصيب نفوسنا بالقرف • توحى بقدرة هائلة على أن تنفث النتن عما قريب • أن يعف عليهـا الذباب • لا نستطيع ان نجسهـا الا بطرف عصـا تقليب الغسيل فى الصفيحة • تذكرنا برائحـة العطن الكريهة التى تكربنا كلما مرونا بالمدابغ •

ماذا نفعل بها ؟ وقفت البالوعـة والمرحـاض يتفرجـان بتشف على حيرتنا • (ورونا شطارتكم) يكفيهما الدم والروث • أكبر الأمل اذن أن يرضى بها الجزار •• أجـرا له • كله ــ ليت •• ــ أو بعضه • لا بأس • والا فسنظل نترقب بفـارغ صبر صوتا يجوب الطرقات • ينادى « جلد للبيع فروة للبيع » سنجرى لاستدعائه • ونقبل ــ بعد فصـال قصير غير جاد من ناحيتنا الثمن الذى يحرن عنده •• انه يمت بصلة نسب الى (الترابية) •• نزلاء القرافة • مهنة مرذولة ، ولكن ما أشـد لزومها لأهل الفقيد • ورحمتها به وبهم • تقول أمى : « لننتظر رجال الاسعاف فنتبرع بها لهم • ونكسب ثوابها » • ولكن لا أحد يضمن حضـورهم ، يظهرون عيدا ويختفون أعيادا • غلبت عليهم طباع الموظفين •

وحين تنزاح رمة الفروة من بيتنا •• انزيـاح الهم عن القلب •• تختفى آخر ذكرى لنا عن الخروف الحى • ومأمأته الحزينة بالليل • ينادى أو يرد بها على تفجعات تتجـاوب فى الحى كله • أصبح حصصا من اللحم • مشغولون نحن بفرز

ما نوزعه منهـا ، وما نستبقيه للشى . للقـلى . للسـلق . للتشويح . للتخزين .. لايزال على هذا اللحم أثر من نضارة الحياة .. يتوهج كأنه انتفاضـة الذبالة قبل أن تنطفىء .. أطياف روائه ولونه الوردى .. تتذبذب كأنها آخر الأنفاس . الخلايا تتلكأ فى الموت بعد طلوع الروح .

ورغم هذا كله لا أدرى كيف نشأت فوجدت فى بيتنـا نموذجين لفروة الخروف . واحدة بيتى . شغل يد . من عمل بواب لأحد جيراننا . له خبرة فى الدباغة . بطنها كورق الكرتون المجعد . وظهرها صـوف ملبد . والأخرى ذهبت الى مصنع وعادت . بطنهـا مصقول لامع . وظهرها صـوف منفوش . مسرح . ملون بتفتـة حمراء . ولكن « ما ألعن من سـتى الا سيدى » .. كلتاهما لا أطيقه . فرغم شيخوختهما لاتزال تعلق بهما رائحة الخروف وزخمتهـا . خزين حرارة بدنه فى صوفه لم يتبخر . حتى فى عز الشتاء ينفث صهدا خانقا . وفى بيوت كثيرة كانت فروة الخروف . البيتى . شغل اليد . هى فراش الخادمة الصغيرة . على عتبة المطبخ أو من وراء بابه .

اختفت الآن فروة الخروف من بيوتنا . وحلت محلها فراء أخرى . تجدها على أبدان آنساتى سيداتى فى رحاب الأوبرا ، أو فى حفلات الاستقبال الهايلايف .. عقبال عندنا وعندك .

(« التعاون » ، العدد ٣١٥ ، ١٩٦٩/٣/٢ ، ص ١٠)

صورة مخيفة للناس والدنيا ..

صب على رأسى فى صغرى صهريج هائل من الحكم والمواعظ . بالفصحى والعامية ، نثرا وشعرا ، على لسان بنى آدم ولسان الحيوان ، رصيد ضخم من الأمثال البلدية أسمعه ممن حولى ، ورصيد أشد ضخامة منحدر من التراث أقرؤه فى الكتب التى وضعت فى يدى ، نحن فى الشرق مصابون بهوس تصيد الحكمة وتقنينها والتفنن فى صياغتها ، نقولها ونحن نهز الرؤوس ــ دراية وخيلاء ، ونسمعها بمصمصة الشفاه ــ اقرارا واستحسانا واعتذارا .

ولا أظن أن صبيا فى مثل سنى فى الغرب تلقى على أم ناصيته هذا الشلال الذى تلقيته ، انهم يتركونه يعمل ويلعب ، ثم يرقبونه ، فاذا رأوه أخطأ أرشدوه الى الصواب بكلام كل يوم ، فتكون النصيحة عملية . مستمدة من الواقع ، والتدريب خطوة خطوة . أما أهلى ومدرستى فكأنما أرادوا لى أن

أكون فيلسوفا من قبل أن تنبت أسنانى البيض محل أسنانى الخضر .

ترنحت تحت هذا الشلال لا لقدرته على سحقى فحسب ، بل لأن بعضه كان يناقض بعضا ، بدل أن يعلمونى الفلسفة أورثونى الحيرة ، حكم وأمثال تحض على الجد والسعى ولو الى حد اهدار الكرامة « المحتاجة غناجه » ، وحكم وأمثال تحض على التواكل « اجرى يا بنى آدم جرى الوحوش ، غير رزقك ما تحوش » .. حكم وأمثال تدعو الى الاقتصاد « والقرش الأبيض ينفع فى اليوم الأسود » .. وحكم وأمثال تزين لك « صرف ما فى الجيب يأتيك ما فى الغيب » .. الضد والضد جنبا الى جنب . ولا من يقول لى : خذ هذا ودع ذاك ، أو متى تأخذ هذا وتدع ذاك . بل قالوا « كل شاة برجلها معلقة » تركونى فى حيص بيص .

لا عجب ان وقعت هذه الحكم والمواعظ على أذن من طين وأذن من عجين ، على لوح من المرمر لم تعلق به منها قطرة واحدة . ولعلى أكذب ، فربما كان هذا التناقض قد لبد فى ضميرى منذ صباى وهو تعليل خوفى القديم الدائم من عدم الاستقرار ومن الحيرة ، من بلبلة الفكر والعواطف ، غير أنى أستطيع التأكيد بأن نوعا من هذه الحكم والمواعظ قد رفضته منذ مبدأ الأمر رفضا قاطعا ، لفظته نفسى كما يلفظ الجسد

عضوا دخيلا ، لأنه كان يخالف طبعى ومزاجى ويرسم للناس والدنيا صورة مخيفة •

وهذا النوع من شعبتين متلازمتين كالتوأمين اللصيقين :

الأولى ــ تحض بشدة على سوء الظن بالناس ، بجميع الناس بل الحذر منهم ، بل (ولابد لى أن أستخدم هنا كلمة « بل » مرارا لأن الداهية ثقيلة ولأن التصاعد كان هو القائد) بل تذهب الى حد التحذير من الأصدقاء بل من الأقارب ، بل الى التأكيد بأن الأصدقاء هم أشد خطرا من الأعداء • ما أكثر ما نسيت ولكن ذاكرتى تأبى أن ينمحى منها قولهم ــ وهذا بالنثر ــ « الأقارب كالعقارب » وقولهم ــ وهذا بالشعر ــ :

« احذر عدوك مرة
واحذر صديقك ألف مرة

فربما انقلب الصديق
فكان أعلم بالمضرة »

لفظت نفسى هذه الشعبة من الحكم والمواعظ لأنها تهيم بعالم تلقى فيه الناس بقلب مفتوح ، وتأخذهم بعبلهم ، التسامح لا النفاق سلاحها ، تعلى من رابطة القرابة ، وتعشق

الصداقة . ستسأل : أو لم تمر بك تجربة أثبتت لك ان هـذه الحكم والمواعظ على حق ؟ أقول : ربما ، ولكن هـذا هو النادر ، ان رفضى لهذه الحكم والمواعظ ربما أذاقنى المر قليلا ، ولكنه أذاقنى الشهد كثيرا . ولو انى أخذت بها لبقى لى المر على قلته وضاع على هـذا الشهد على كثرته . نعمت بصداقات عديدة كل واحدة منها تكفى لتكذيب هـذا الحشد من الحكم والمواعظ ، ان أجمـل سـاعات عمرى هى التى تجمعنى الى أصدقائى : بالمكاتبة أو المجالسـة أو أخذ الذراع فى الذراع والسير كأننا على غير هـدى ، اننى مدين لأصـدقائى بأكبر قسط من السعادة نلته فى حياتى ، ما أحلى ترك النفس على سجيتها مع انسان يحمل لك الود ويترك هو أيضا نفسه على سجيتها .

أما الشعبة الثانية فهى حين رتبت الفضائل حارت ثم استقر رأيهـا أخـيرا على ألا تضـع على رأس القائمـة الا فضيلة الكتمان والصمت ، الأدب العربى أغنى آداب العالم فى الاشادة بفضيلة عقد اللسـان ، فأنت ترى أن هـذه الشـعبة لصيقة بالشعبة الأولى لأن من شروط الحـذر كتمان السر واطباق الفم ، وحتى لو كان الصمت ضارا فهو أفضل من البوح .

مت بداء الصمت خير لك من داء الكلام .

رفضت هذه الشعبة كلها لأنى أهيم بحياة لا أجد فيها عيبا

أو دنسا أو دسيسة ينبغى سترها ، فاذا عقدت لسانى شعرت بأننى أكتم اثما اقترفته أو خطة سوء أدبرها ، ما أفظع جدران الصمت التى نقيمها من حولنا بدل التواصل فواصل وعوازل ، ما أحمق الذى يتكلم عن نفسه خيرا يعلمه الجميع .. فنحن نعيش فى عالم كل سر فيه ينفضح اما عاجلا أو آجلا ، ويأتيك بالأخبار من لم تزود . هذه الشعبة من الأمثال والحكم والمواعظ هى السبب فى أن كثيرا من الناس يعيشون داخل قواقع ، بل ان بعضهم ليقفل الكتاب الذى يقرأ فيه اذا دخلت عليه ، بحركة تلقائية ، كأن مجرد قراءته لهذا الكتاب سر ينبغى كتمانه . اننى أرثى لهؤلاء الناس من كل قلبى .

(« التعاون » ، العدد ٢٥٩ ، ١٩٦٨/٢/٤ ، ص ٨)

انما الدروس من حوش المدرسة ..
لا من الفصـــل

والكلام عن المدرسة الابتدائية التى تلقفتنى من السابعة الى الحادية عشرة من عمرى . عجنت طفولتى الخـــام بيدين متخشبتين فى ماجورها المتحجر ، بفك عناصرها وتذويبها فى ماء آسن أولا ، والالحـــاح عليها بعد ذلك بالضغط والهبد واللطم ، حتى اذا تم اندماج الكل فى قوام واحد اقتطعتنى بالتقريص ، بالزج فى نار حامية رغيفا ماسخا (فليس فى عجين هذه المدرسة ملح) يشبه جميع أرغفتها الأخرى التى تأخذ طريقها الى المدرسة الثانوية وبيدها شهادة . هـــذا هو هم هذه المدرسة . لها الظاهر أما الباطن فيظل مستعصيا كالنواة الصلبة ، العظـــام باقية تحت الجلد المصنوع لها .

فى الفصل : الدروس حبر على ورق للصب فى الذاكرة غصبا ، بلا فهم ، منبتة الصلة بالحيـــاة والطبيعة من حولنا . لا نعلم لمـــاذا لابد لنا أن نعلمها ، وما فائدتها . الجلسة بالأمر

تربيع الذراعين • لا عجب أن أصيبت يدى بالشلل من فرط الأدب •

فى الفصل : عين تراقب حركاتنا وسكناتنا ، وتهوى بالعصا على الكتف بسن المسطرة على أصابع اليد فى عز الشتاء والقشف ، وأحيانا على باطن القدم أيضا • الكتكوت الذى يفك صاغرا رباط الحذاء ثم يخلعه ، فوق ألمه خجله من جوربه الممزق • أما الصفع على الوجوه فهو علاوله • كان من المستحيل ألا يكون بين طقم المدرسة من هو غير مصاب بالسادية أو ببذاءة سكية عجرية أو بدمامة الروح والذوق •

فى الفصل : يجلس التلاميذ صفوفاً حسب طول القامة أو البصر • شريكى فى التختة مفروض على ، ان لم أكرهه فهو ليس أعز أصدقائى •

فاذا دق الجرس ايذانا بفسحة طويلة اندفعنا كطلقات الرصاص كأنما من بؤس السجن الى نعيم الحرية • ما أعلى الزئيط والزعيق • شاع الجرى والقفز • استرد كل تلميذ ذاته ، أصبح فردا لابد أن يجد مكانه فى المجتمع الطليق فى الحوش • أن يواجه البشرية أخذا وعطاء • هنا ـ لا فى الفصل ـ محك قدرته على الالتحام والمشاركة فى اللعب ، وفى معجم الألفاظ المتداولة ، والرموز المتفق عليها ونوع الدعابة الرائجة • سيتبين فى الحوش لا فى الفصل : هل هو قادر على هذا الالتحام فيندمج

أم هو عاجز عنه فينفصل • هل هو اشعاعى أم انطوائى • كيف يكون تلقيه للنصر وتلقيه للهزيمة • سيتبين ما هو طول هـذا الخيط من المطـاط الذى يشد عليه عزمه وارادته ، وأين ومتى ينقطع •

ستندلق أمامه فى الحوش مختلف الطبائع ، ولأنها لاتزال بكرا وخاما فهى مجردة من الأغطيـة والأقنعة ، لا تخجل من عريها ، مأخوذة كلها مأخذ القضية المسلم بها • لكل منا حقه فى الوجود ، فلم ينضج البصر والفهم بعد للانتباه الى القضاء ، والعجب له • ليس فى اليد بعد قانون متـكامل تبنى عليـه أحكام • أشبه حوش المدرسة بباطن الغابة •

فى حوش المدرسة استعراض للوداعة ، أحيانا للمسكنة ، لشهوة الاعتداء ، للسماحة والمكر ، للقناعة والجشع ، للكرم والبخل ، للخطف والشحاذة ، للقـدرة على القيـادة والرضـا بالانقيـاد • صراع خفى لا ينتبـه اليـه أحـد بين نوازع الخير ونوازع الشر ، ولكن حوش المدرسـة يشبه الفصـل فى خصلة واحدة ، هى خلو الاثنين من الرحمة ، بل نجد فى الحوش أن قسوة الطفولة ــ التى يقال عنها انها بريئة ، ملائكية ــ أعتى من قسوة المعلم فى الفصل • بعض التلاميذ لقوا فى الحوش عذابا لا يتصوره عقل • لا رحمـة للأضعف أو للأذل أو للأخيب ، أو حتى للمصاب بعاهة هو غير مسئول عنها •

في حوش المدرسة الابتدائية تلقيت أول دروس فى الجنس . في الفصل كنا لا نلم به الا حدسا ، في درس الدين حين يكون الكلام عن النجاسة الكبرى والنجاسة الصغرى ، ومتى يجب الغسل ، ومتى يجوز الاكتفاء بالوضوء . تتقلقل فى جلستنا ونهر بضحك ماسخ فى سرنا . وفينا من يحمر وجهه خجلا ولا يدرى لماذا . ترى ما هذا السر الذى يحجبونه عنا ؟ لاشك أنه مهيب جدا ، وان كنا لا ندرك أهو جميل أم قبيح ، رغم الايحاء لنا بأنه « عيب » من أشنع العيوب .

أما فى الحوش فجو يتيح للغرائز أن تتنفس . من أجسادنا الغريرة بدأ يتصاعد هبو لايزال كأنه تأتأة من يتعلم الكلام . لو كانت لنا آذان بعض الحيوان لسمعنا أزيز هذه التأتأة التى تملأ الحوش خفية منا . الفرد فى الواحد مشرئب لأن يكون فردا فى اثنين ، النوازع الى التكامل بعاطفة الحب تبدأ أولا باسم الصداقة ، يبحث كل تلميذ عن رفيقه . قد يجده وقد لا يجده . (هذا هو الحال بقية العمر) فاذا وجده أحس بالسعادة الكبرى فى صحبته ، هو الأثير عنده تمتد اليد لتلمس اليد ، ليسرى التيار فيهما معا . ما أطيب وضع الذراع على الكتف ، أو أخذه للذراع الآخر فى تشبيكة حميمة . تموج هذه العلاقة عادة بالاقبال والصد ، بالعتاب والاسترضاء ، بل بالغيرة الممزقة المدمرة . ما أحلى الصلح بعد خصام . ما أتعس الذى خانه

صديقه فطار من يده الى عش غير عشه . هذه هى التجـارب الأولى التى تنفض من القلب كل قدراته على التموج فوق بحر العواطف . على تذوقـه لمـا بين أقصى اللذة وأقصى الألم من درجات متفاوتة .

هذه هى البداية البريئة ، ثم لا تلبث أن تفترق الى طبقة تعلوها فى الافصـاح عن الغرائز . يحوم فوقها شبح هذا السر الذى يخفيه المعلم والأهل عنا . فهذا التلميذ الصبوح الوجه ، أو الملظلظ الجسد ، أو أبو العيون الخضر التى يسيل منهـا العسل ، أو هـذا المفرط فى أناقته ، أو صاحب هـذه اللثغة العجيبة ـــ الحلوة ـــ اذا تكلم نجد بيننا تميزه عن الجمع . يخيل الى أنوفنا أنها تشم فيه رائحة تجذبنا اليه . نأخذ نرقب علاقاته برفقائه وأساتذته . أصبح كل واحد منا بوليسا سريا ، يدور الهمس عنه ، يتكاثر حوله كالذباب وقطعة السكر ، أشدنا جرأة وقدرة على الاعتداء ، ونقف نحن نرقب سرا تتابع حيل الصائد لاقتناص فريسته ، وحيل الفريسة للهروب ، هـل تقع أم لا تقع .

أتدرى ماذا فعل العجزة ؟ ألف بعضهم من فورهم جمعيـة أطلقوا عليها اسم « جمعية حماية الآداب » ، غرضها الأوحـد انقاذ الفريسة من الصائد .

فى حوش المدرسة ـــ لا فى الفصل ـــ تلقيت أول درس هام

فى حياتى • فقد خامرنى وأنا لا أزال فى هـذه السن الصغير
شك بأن أعضـاء « جميعية الآداب » ليسوا حريصين على عفة
الذى يدور حوله الهمس ، بل غاضبون لأنها قد تقع فى يد غير
أيديهم • بدلا من أن يذهبوا للصـيد صراحة وبشجاعة تسللوا
اليه بالمكر والحيلة تحت قناع حماية الفضيلة • وكان أول فوز
للجمعية مدعاة لأن يتحول الشك الى يقين ، فرئيس الجمعيـة
استولى على التلميذ الذى يدور حوله الهمس • أصبحنالا نراهما
الا معا ، كأنهما فى خلوة رغم الزحام ، بين الابتسامات وقطع
الشكلاتة ، وسمعنا أنهما يتفقان على مواعيد بعد الخروج ،
وأنهما يستذكران فى بيت الصائد •

والله عال • والله عال • نسى الخائن أن هنـاك جمعيـة
اسمها « جمعية حماية الآداب » ، وأنه هو رئيسها • ونسى أنه
مكلف بدعوتها للانعقاد ، فلما انحل الرئيس انحلت الجمعيـة •
ماتت بفضل فوزها الأول •

لم يكن غضبنا أنه وصل دوننا ، بل أنه استعبطنا واتخذنا
مطية وسلاحا يرهب به ضحيته •

منذ ذلك الدرس الأول فى طفولتى لم أنقطع بقية حيـاتى
عن الشك فى كل واعظ اذا علا غليانه الى درجة التشنج والنحيب
تفجعا للفضيلة المذبوحة •

(« المساء » ، ١٩٦٨/٣/١٨ ، ص ٤)

من كناسة الذكريات

كان احتفال البيت كله — الأب والأم والأولاد والصغار — بزجل جديد لبيرم — بالعامية — لا يقل — وهم من عشاق الفصحى — عن احتفالهم بقصيدة جديدة لشوقي. وصول الصحيفة اليومية التى نشرت القصيدة — بالتشكيل — فى صفحتها الأولى (فلشعر شوقى دون بقية الشعراء مكان الصدارة مهما كانت الحوادث والأخبار) ، أو المجلة الأسبوعية التى نشرت الزجل — بدون تشكيل طبعا — فى صفحة داخلية (لم تكن الصحف اليومية تنشر بعد شيئا بالعامية . تركتها لبعض المجلات ، فعصر صلاح جاهين كان لا يزال فى عالم الغيب) يالها من لحظة مضيئة فى حياتهم . انهم تربوا على حب الكلمة ، سواء مكتوبة سواء منطوقة ، والاعجاب بقدرتها حين تنزل منزلها الحق والمبتكر معا على امتاع الذهن والروح معا .

الأيدى تتخاطف الصحيفة أو المجلة والحجة اما مقام الكبير أو دلال الصغير ، خطف يعرض الورق للتمزق . ولكنه خطف فى

نطاق الود لا العداء • فهو مصحوب بالضحك والمعابثة • ان كان هناك غضب عند الهزيمة ، فهو مصطنع ، سريع الزوال ، ينتهى بالمهادنة ، لا يكفيهم أن يقرأها كل منهم بعينه ، ولنفسه بنفسه • لا بدلهم بعد ذلك أن يتحلقوا حول من هو بينهم أكثرهم تمكنا من اللغة واجادة للالقاء وهياما بالشعر الى حد أن تأخذه الجلالة ، ايتلو النص عليهم ملتزما نغمة الانشاد وحركة الخطيب ، اتشترك الأذن أيضا فى المتعة • والعجيب ان لسان السامع منهم حين كان ينطق سرا فى فمه بالكلمات وهو يقرأ النص بعينه ، ولنفسه بنفسه لم يكن يحس له بهجة التلاوة التى يحس بها الآن وهو ساكت داخل الفم حين يسمعها تتلى عليه انشادا ، كانوا على غير علم منهم شهداء بأن الشعر فن يزكو بالانشاد المنغم جهرا ، ثم لا يجد تمامه ولا كمال رسالته الا اذا كان انشاده على جماعة من المستمعين المحبين له ، فهو فى الأصل فن خطابى غنائى جماعى • انه يتطلب أن ينشأ تيار عاطفى متجاوب بين فرد وجماعة ، كما يحركهم ويطربهم هو بأنغامه المبتكرة ومعانيه الفذة ويرفعهم من هموم الأرض الى صفاء ذرى الفن والجمال يحركونه هم بعناقهم له ، والاستجابة له ، فيثبتون ايمانه بموهبته ورسالته ، شرفها ونفعها وبهائها ، الوحى للشاعر حمى لا يتبرد منها الا اذا استحم فى تيار عاطفى جماعى يتجاوب له ، وهو الذى فجره •

• • • •

ومع أن اللغة العامية كانت هى خبزهم اليومى فانهم كانوا

أقدر على قراءة القصيدة بالفصحى واجادة انشادها منهم على قراءة الزجل بالعامية ، دع عنك انشاده ، فحركات التشكيل والتنوين مساعـدة على التنغيم . والحرف فى الفصـحى ثابت لا يتبدل ، أما فى العامية فالحرف يتبدل . كالهمزة بدل القاف ، والتاء بدل الثاء ، والكلمـات ــ رغم صحة الوزن فى البيت ــ تبدو منثورة فرادى ، كأنها غير مترابطة ، لذلك كان يرسخ فى اذهانهم من القصيدة أبيات ، على الأقل بيت واحد يكون هو بيت القصيد . أما عن الزجل فلا يبقى منه شيء . فكان بحثهم ومتعتهم وظفرهم فى قصيدة شوقى هو النغم والمعنى المبتكر ، أما فى زجل بيرم فهو النكتة ، خفة الدم واستجلاء سر عبقريـة اللغة العامية ، ظرفها ولطفها وبراعة كنايتها ، وكانت بضـاعتهم من النصوص العامية قليلة ، وقديمة ، كتاب يضم مجموعة أزجال الشيخ القوصى ، وزجل قرأوه مرة وبقى شبحه ماثلا فى أذهانهم ، للأستاذ عبد الله النديم ألقاه ارتجـالا فى سباق مع الأدباتيـة فى طنطا ، أيام الصعلكة ، ولكن كل هـذا كان له طعم الأكل البايت . ذوق العامية تحول ، انه سريع التحول ، فلم يجـدوا من يعبر عن حلاوة العامية فى عصرهم الا فى أزجـال بيرم ، لا يدانيه شاعر آخر ، اللهم الا اذا استثنوا حسين شفيق المصرى، فقد كان هو أيضـا محبوبا عندهم ، ولكنهم لا يدرون لمـاذا قدموا بيرم عليه ، لعل السبب أن حسين كان يطلع عليهم مرة بزجل بالعامية ، ومرة بقصيدة بالفصحى ــ فهو موزع الاخلاص،

لا يثبت على حب ، أما بيرم فقد كرس نفسه ، كل نفسه ، لحب واحد ، هو حب العامية ، كان عندهم هو اللغة العامية فى عصرهم . وكانت هذه اللغة هى بيرم . كانوا شهداء على غير علم منهم بأن الفن هو شديد الغيرة ، لا يقبل غريما .

ولا ينسى ابنهم الثالث الى اليوم خيبة الأمل التى ضعضعته مرة ، كانوا قد فرغوا من قراءة زجل لبيرم جماعة ، وانتشوا جميعا بما فيه من ظرف وخفة دم . فأخذه وطار به الى صديق له وقال له جئتك بشىء عجب ينشرح له صدرك ، استمع ، وفرد الصحيفة وبدأت السمكة التى خرجت من بحرها تقرأ ، واذا لسانها يتلعثم ، واذا النغمة متأبية عليه ، هوى الرجل من شاهق ووصل الى أذن صاحبه مهزوما مهشما ، فلم يتجاوب له ونظر الى السمكة مندهشا حائرا من تفسير لهفتها وفرط العجب ، وأخذ صاحبنا يقلب الورق ليبحث عن الظرف واللطف، وخيل اليه أنهما سقطا منه فى الطريق ، فكان شاهدا على غير علم منه بأن أزجال بيرم لا تزكو الا اذا جاشت لغته من قبل عواطف المتلقين ، انها ضرب من الفن يحتاج الى ألفة ودربة قبل أن يتم تذوقه ، وعاد الى بيته مدلدل الأذنين . وقد باخ تحفزه وتثلجت لهفته وان زاد حبه لأهل بيته وحمده لربه أنه نشأ بينهم .

وظل البيت وفيا لبيرم ، باقيا على حبه والاخلاص له ، يحزنهم

أشد الحزن أن يفلت منهم زجل له ، وظلوا يتتبعون أخباره ، ويرثون له وهو يتلطم فى غربته فى فرنسا ، ويضحكون معه وهو يروى لهم حكايات « سيد ومراته فى باريس » . ما أشـــد اعتزازهم باحتفاظهم بأعداد مجلة « المسلة » التى كان يصدرها ويعجبون بفضلها بجرأته ووطنيته ، وان ضاق صـــدرهم قليلا ببعض « التلميحات العامية » الفجة من قولة « البامية الملوكى والقرع السلطانى » تحيـــة لمولد ولى العهد ، حقا أن الخط الفاصل بين رقة الذوق وفجاجته فى العامية وثيق كالصراط يوم الحشر ، وكانت أعز أمنية لهم أن تكتحل عيونهم برؤية بيرم ، حبذا الجلوس اليه ولو مرة ، أما الاختلاط به ومصادقته فأمل بعيد المنال ، لأن فيهم بطبعهم عزوفا من الهجوم على الناس ورمى الجتت عليهم ، أما اذا جاءهم انسان فأهـــلا وســـهلا ، يعوضون بالاغراق فى الحفاوة به والاسراع الى مصادقته ما فاتهم من الروابط التى عجزوا هم عن توثيقها بجهدهم ، ولمـــا جاءهم ذات يوم خبر عودة بيرم لمصر ونجاته من البوليس كان هـــذا اليوم عندهم يوم عيد ، (وبيرم كلمة تركية معناها : العيد وتنطق بفتح الباء وتسكين الياء) .

يرجع مرجوعنا ، كبر الابن الثالث وبدأ يكتب كلاما فى الصحف والمجلات ، لم يعجب وان كان من العجيب أنها قبلت نشره ، فتمطع ذات يوم وكتب مقالا يشيد فيه ببيرم وأزجاله ، وعده أيضا اماما فى فن القصـــة القصيرة ، اغاظة لمن يكتبونها

بالفصحى ، وظهر المقال فى مجلة ، فتمطع وحزمها وأرسلها بالبريد المسجل الى بيرم وهو مقيم فى باريس ، بعد أن حصل على عنوانه من الصحيفة التى ينشر فيها مذكرات « سيد ومراته فى باريس » . كأنه يريد أن يقول له : فى مصر انسان يحبك ويعجب بك ويشيد بفنك ويهمه أن يبلغك هذا الحب وأنت فى غربتك ، الحقيقة أنه كان يريد أن يقول له قبل كل شىء : انظر ! اننى بدأت أكتب !/ أصبحت أسير فى ركابك .

لم يحدث أن قطع نداء من ناشىء لأستاذ ما قطعته هذه المجلة من مسافات عبر البر والبحر ، ومع أنه كتب عنوانه تحت امضائه فانه لم يتلق ردا . يقول وهو يغالط نفسه انه لا يطمع أن تصله كلمة شكر ، كل الذى يرجوه سطر واحد يحمل من « بيرم » تحية ، ليمتد بين الاثنين جسر ولو فى الهواء .

ومع ذلك فمن فرط حبه لبيرم لم يحزنه أنه أغضى عنه وأهمله ، دون أن يدرى أن نفقة ارسال المجلة بالبريد المسجل كلفت المحب نصف مصروفه الشهرى .

ومرت شهور ، وربما أعوام ، ونسى حكاية المقال والمجلة .

وذات يوم ابتسم له الحظ ، والتقى ببيرم ، فذكره بحكاية المقال والمجلة ، أول كلام . اعذره فقد كان لا يزال فى ميعة الصبا ، متلهفا على شهادة بأدبه تخرجه من الظلام الى النور .

سأل بيرم : هل وصلته المجلة ؟ هل قرأ المقــال ؟ فاذا به لشدة دهشته لا يجد من بيرم شكرا ولا حنانا ، بل وجده قد اربد وجهه واغبر وفاجأه بقوله :

ـــ هو أنت ؟ الله يخرب بيتك !

ثم روى له أنه كان فى باريس يشكو من الجوع . ليس فى جيبه من الفرنكات ما يكفى لأكله فى يومه . انه ينتظر على أحر من الجمر أن يصــله بالبريد أجر بعض مقالاته . فلمــا وصله اخطــار من البريد أن له عنده طردا مســجلا هرع اليه كالمجنون . اذن جــاء الفرج ، وأيقن أن الأمــر اختلط على البريد ، فالذى وصله ليس طردا مسجلا ، بل مظروفا مسجلا داخله شيك على بنك ، والا فان صديقا فى مصر قد حن عليــه فأرسل له بعض الملابس أو بعض المــأكولات . ومنى نفســه بدفء أو شبع ، فاذا به يفاجأ بالبريد يطالبه بدفع أرضية لأنه كان قد غير عنوانه أكثر من مرة فلم يصله الاخطار الا بعد تأخــير .

وسأل عن المبلغ المطلوب فاذا به يستنفد كل ما فى جيبه . لو دفعه لا يبقى فيه قلس واحد ، والجوع باق يحدق فيه ، فنسى نفسه وحصافته من شدة اللهفة ، ودفع المبلغ فاذا به يستلم طردا ما كاد يفكه حتى وجد فيه مجلة ، قديمــة فوق البيعة !

رماها على الأرض من فوره وهو يلعن ويسب من أرسلها له وتسبب فى دفعه للغرامة ، وهى كل ما يملك !

ثم أنهى روايته وهو يقول : تعلم الآن أننى لم أقرأ مقال حضرتك يا سيدى ..

وكانت قد ارتسمت فى ذهنه لبيرم ـ غيبا ـ صورة رجل ظريف ، بجبوح ، ابن نكتة ، سريع الاقبال على جليسه ويهش له . رجل يكره الغم والنكد ، ناج من الأحقاد ، لا يحب الشكوى ، سعيد بالمكانة التى بلغها .. فاذا به لشدة دهشته يجد بيرم حين التقاه على نقيض هذا كله . وجده انسانا يحب العزلة ، من الصنف الذى يكره أن تلمس يد غير يده ذراعه أو كتفه . يطيب له أن يجلس وحده فى مقهى بلدى فى حى شعبى ، منقبضا ، مكورا على نفسه . والتكور أيضا صفة جسده ورسم وجهه . ملامحه تكاد تنطق بأنه يتكتم زمجرة ترتكض فى أحشائه ، خيل اليه أنه يجز على أسنانه . ولما جلس اليه أحس أنه لا ينتظر منه الا الحديث المقتضب ، كلمة ورد غطاها ، ليس له صبر ولا مرارة على اللت والعجن . فاذا تحدث هو لم يكن حديثه الا عن شكوى من مطربة أكلت حقه ، وعن الاذاعة التى أهملت أوبريت له . فى صوته نغمة الشكوى من ظلم واقع عليه ، وأن حقه مهضوم .

لا يستطيع أن يجزم أن هذا هو طبع بيرم الغالب عليه

فى جميع حالاته ، مع جميع الناس ، ولكنه يستطيع أن يشهد أنه هكذا وجده فى المرات القليلة التى جلس فيها اليه . ثم صار بعد ذلك يتحاشى اقتحام خلوته ، لأنه لم يفلح ــ كما كان يتمنى ــ فى أن يمد جسرا بينه وبينه ، هذه المرة على الأرض لاعبر البر والبحر ، ليجد فى نهايته بيرم الذى تغنى بأزجاله مرارا ، قارئا وسامعا ، فكان يسكر طربا للطفه وخفة دمه .

وظل يتتبعه من بعد ، ثم بدأ يضع يده على قلبه خشية أن يغتال تحول ذوق العامية السريع امام العامية فى عصره ، فيسبقه الزمن ومصطلحات جديدة توافق عصرا جديدا يقدم بخيله ورجاله وسلطانه وهيلمانه .

(مجلة « المجلة » ، العدد ١٣٧ ، مايو ١٩٦٨ ، ص ص ٢ ــ ٤)

وجهـا .. لوجـه .. !!

أول مرة شهدت فيهـا انسانا يحتضر أمامى . يكاد فمى يلمس فمه من فرط انحنائى فوقه . أطل على تلك اللحظة المذهلة التى تقلب الحيـاة فجأة الى موت ، وال (أنـا) فيمن يلفظ آخر أنفاسه الى (هو) أبدية . تنقل بقيـة الوجود الى عدم ، الحركة الى جمود . تعدد تعبير متجدد الى شلل قناع على وجه. هل يريد أن يقول لنا شيئا ؟ .. هيهات له ولنا . لغته ليسـت لغتنا . انتهت الصلة بيننا بلا عودة .. تنقل بتة واحدة منطق جميع الفلاسفة فى عقد صلح بيننا وبين الكون الى لغز مستبد لا يعرف مخلوق سره .

انه السر الالهى لا نملك ازاءه الا السكوت . ليس فى يدنا علاج ، ولا طاقة لنا على الفهم . سكوت يجمع بين بلسـم الرضا والتسليم بحكمة الله ، وجرح حسرة بلهاء مشـوبة بشىء من حنق مكتوم نخجل من الجهر به . فالذى يجهر به نراه جن أو كفر .

وقد أريد لى أن يكون أول موت أشهده هو موت مصفى من كل عارض عاطفى قد يزيغ بصرى عنه أو يفسد على الرؤية المباشرة المحايدة . لادخل فى نظرتى للذاتية أو المصلحة أو الهوى . لن أكسب شيئا ولن أخسر شيئا ، فالذى حضرت موته لم يكن من أقربائى أو أحبائى أو أصدقائى ، بل كنت لا أعرف اسمه ولا آماله وهمومه ، ولا أين يسكن والى من يؤوب حين ينقضى سعيه فى يومه ، فكأننى فى معمل كيمائى نجح فى عزل ميكروب الموت ووضعه منفصلا تحت المجهر أمامى ، بلا طفيليات .

وقد يظن من كلامى — كما يقضى منطقه — أننى حمدت لقدر رحيم أن قسم لى فى التجربة الأولى هذه المواجهة المحايدة فبصرنى دون أن يفجعنى ، ولكن العكس هو الذى أقصده من كلامى ، فان هذه المواجهة كانت لها عندى بسبب هذا الحياد بعينه أثر العنف المزلزل ، لأننى رأيتنى لا أحضر موت انسان ، بل موت الانسان .

فأريد لى كذلك أن يكون أول موت أشهده هو موت يعد أبدع مثال على أن الذى يربط الانسان بالحياة انما هى شعرة أوهى من خيط العنكبوت ، ها هى ذى تنقطع صدفة ، ومن حيث لا تنتظر وضد كل منطق وحسبان وتقدير ، كأن السخف صفة لا تعرفها الحياة وحدها أحيانا بل يعرفها الموت أيضا

أحيانا ، والسخف يليق بالحياة اللعوب ولكنه لا يليق بالموت الجليل . من أجل هذا زاد ذهولي ضعفين .

لم يكن من تلامذة فصلي ، بل كنت أراه وقت الفسحة في حوش المدرسة السعيدية (١٩٢٠) أو وهو راكب في ناحية أخرى من عربة الترام وأحيانا مشعبطا على السلم ، أصادفه في الاياب عصرا أكثر من الذهاب صباحا . لم يدر بيننا كلام ، ولم نتبادل التحية ، ولكنه كان مع ذلك مفروزا عندي عن بقية زملائي المجهولين غير منضم الى شلة ، تكفيه نفسه ، يعتز بكرامته يستوقف نظرتي انفراده بكبسة طربوشه فوق رأسه ، كأنما يلبسه لبس عمامة . رأس ضخم يبدو داخل الكبسة كأنه غير مستدير بل مربع كحلقة العمامة .

ما فتئت منذ صغري أفتن بضخامة الرأس واتساع الجبهة وارتفاعها ، وحبذا لو كانت مضيئة غير كابية . هي عندي « دينامو » جبار أحس احساسا أكيدا بأن تيارات كهربائية خفية تنبعث منه ، ومازلت مفتونا رغم الأبحاث التي تفصل بين الذكاء وحجم الرأس . وقررت أن له عقلا كبيرا وذاكرة قوية، يهضم ما يقرأ أول مرة ولا ينساه . وغبطته على حسن حظه . عينان صافيتان يترقرق فيهما الحياء ، تريدان أن تضحكا ومنك أن تشاركهما الضحك .. في صمت ، وحتى من بعيد لبعيد . نظرة ثابتة غير تائهة ولا مبعثرة ، كأن النظر عنده لا يعني

الا التأمل . النظرة هي التي جعلتني أقرر أن رأسه الضخم يحوى عقلا هو أيضا ثابت غير مضطرب ولا مرتبك ، له قدرة فائقة على الترتيب والتصنيف وتقديم الأهم على المهم . يتناول كل شيء فى أوانه . اذا عكف على عمل لا يقوم عنه الا اذا أتمه ، حتى ولو دق الطبل البلدى الذى لا ينجح شيء ســواه فى هش الوطاويط اللاصقة بوجه ضحيتها ، وأنه اذا قرأ كتابا للمتعة لم يعدل عنه بعد صفحات قليلة لغيره ، ثم لغير غيره .

الملل عنده نوع من الدلع والصبر رأس الفضائل .

اذن هى رأس كالزلطة اذا خبطتها فى الجدار انكسر الجدار ولم تنكسر هى .

كتفان عريضان وان كان الجسم قصيرا ــ أشبه ما يكون بمثلث مقلوب القاعدة ــ لاشيء يحمل مثل هــذا الرأس الضخم! الا مثل هذين الكتفين العريضين . ربطة عنقه مشتراة ولا ريب من على عربة يد أو علاقة فى درفة فى سوق البواكى بالعتبــة الخضراء . بريق على فشوش ، ولون لا تضمه (باليت) أى فنان حتى ولو كان من أنصــار السيريالية ، ومع ذلك كان من الواضح أنه معتز بأناقتها ، لأنى لم ألمحها قط مزحزحة من تحت ترقوته الى يمين أو يسار ، أو الطية القصيرة التحتانية منفلتــة هاربة من تحت الطية الطويلة الفوقانية . عند أغلب زمــلائى حينئذ ربطة العنق مقص مفتوح .

كل شيء فيه ينتهى الى أنه من أصل ريفى متقشف ، مستور رغم الفقر ، ولعل صلابة رأسه الضخم حملنى على الاعتقاد بأنه من الصعيد • ولو زاره « داروں » لقال ان الضرب بالشـوم فوق النافوخ هو الذى أنتج صلابة هـذه الرؤوس ، وخيل الى أن جسمه قد ترعرع على طعـام عماده البصـل والعسـل الأسود ، وأنه لكثرة اصابته بالأمراض أصبحت له مناعة تغالب أفتك الميكروبات •

جسم خليق بأن يعيش مائة سـنة ، دون أن يعتم بصره أو يتهتم فكه ، وكنت واثقا أنه سينجح سنة بعد سنة ، وأنه فى المهنة التى سيختارها سيصبح أستاذا يلمع اسمه لا ارضـاء لنفسه فحسب ، بل لأسرة تحتضنه وترقبه وتعلق عليه أكبر الآمـال ، ستطول به رقبتها فى القرية ويعم خيره ويفيض على أهله وعشيرته كلهـا •

وقبل أن أتم حديثى عن المدرسـة دعنى أقدم لك كامل أفندى الأزوت ، لأنه سيلعب دورا كبيرا فيما بعد • شاب نحيل ضعيف دائم الارتباك واللهوجة ، لا تراه الا مندفعا من باب يصدمه فى الدخول والخروج • يلبس نظـارة بلا اطار تحتقر الأذنين وتتشبك بقبضة الأنف بكماشة من ذبابتين ، لا يربطها بقيطان الى عروة سترته ، وكان يدهشنى أنها رغم اندفـاعه لم تسقط قط أو ترتفع فيها كفة عن كفة • هو محضر معمل الكيمياء

فى المدرسة ، وكنا ننظر اليه باستعلاء واستخفاف ، فلا هو أستاذ ولا هو تلميذ أو فراش ، بل هو شىء بين بين • وكنا نؤمن أنه بلغ ورضى أن يقف فى المؤخرة لأنه عاجز عن شق الصفوف • لن تراه فى الحلقة الملتفة حول الحـاوى الا واقفا على الهامش ووراء رجل أطول منه •

وكان أستاذ الكيمياء قد طلب من كامل أفندى ذات يوم أن يعدله الأزوت قبل بدء الحصـة • فلما دخل المعمل ونحن معه لم يجده فصرخ مستفهما : « يا كامل أفندى •• الأزوت ؟ •• » منذ تلك اللحظة أصبح اسمه عندنا كامل أفندى الأزوت ، وزاد استخفافنا به •

فى عز حر صـيف وعز المذاكرة •• لم يكن قـد بقى على الامتحان الا أيام معدودات • أجساد التلاميذ وعيونهم ذابلة ، مجهدة • الغيطان التى مررنا بها فى الصباح ممتدة من كوبرى الزمالك الى الكوبرى الأعمى (هكذا كان اسمه) تعلوها شبورة من رطوبة ثقيلة ، ومع ذلك لم تخنق بهجتها ، بل زادتها سحرا بغموضها • لا يملك القلب ازاء جمال الطبيعة الا أن يسبح بحمد ربه ، ثم يبحث عن شعر يحفظه ليرتله سرا • ليس هناك الا فيلا واحدة صغيرة ، هى لشقيق حافظ رمضان ، ثم قريـة العجوزة كأنها دمل فى وجه القاهرة •

فى العودة ظهر (اذ كان اليوم يوم خميس) الغيطان تكاد

تسقط من شدة القيظ • كل ما تلمسه ساخن حتى خشب مقاعد الترام ، بما فى ذلك أسفلت كوبرى الزمالك ، تستطيع أن تقلى فوقه بيضـــة • كنت راكبا همدانا فى آخر مقعد فى العربة القاطرة محشـــورا بين معـــارف وأغراب ، ظهرى الى ظهر الســـائق فى مقدمتها • وأمامى العربة المقطورة تتأرجح من فوق لتحت ومن يمين الى يسار وبالعكس •

رأيته واقفا مزحوما مشعبطا على حافة طرف السلم الكنز فى مقدمة هـــذه العربة ، قد ثبتت له قدم وبقيت الأخرى طليقة كأنها ملتذة بحريتها فى الهواء فى كل مطب يضرب الكعب الحر الكعب الثـــابت ثم يفترق عنه • فى لفة ذراعـــه الأيمن رزمـــة من الكتب مختلفة الأحجام لابد من ضغطها على ضلوعه ونحو ابطه لئـــلا تنفرط وتسقط ، وذراعه الأيسر ملتف كالحلقـــة الناقصـــة حول العمود الحديـــدى الواصـــل بين سقف العربة وأرضها ، يمسكه به عضة من ثنية كوعه عليه • هذا وضع أشد اراحة له مما لو قبض عليه بيده اليسرى فتلسعها حرارته ويدب فيها الخور بعد قليل (اسألنى فقد تشعبطت مثله وفى موقفه مرارا) •

فى بعض المنعطفات المأخوذة خطفا كانت رزمة الكتب تدور مع جسمه وتصـــدم وجه جدار العربة الأمامى القصى فيميل ويزيد ـ وهو يبتسم من ضغطهما على هـــذا الجدار حتى يملك

توازنه الى أن ينقضى المنعطف ويستقيم الشريط . بينى وبينه أقل من نصف متر . العينان هما هما رغم الذبول صافيتـان يترقرق فيهما الحياء تريدان الضحـك ، ومنك أن تشاركهما الضحك ، التـأمل ، الفم المطبق على لسـان غير ثرثار (انتى لا أذكر شيئا عن صوته) . العزم على المضى رغم الصعاب ، على النجاح بأى ثمن . لا دلع ولا مدرس خصوصى .

وجئنـا الى كوبرى الزمـالك . هان المشـوار ، وزمر الكومسارى (ولا يدرى أحد أين هو ، ولا يدرى هو حال النازلين والصاعدين) ، وانثنى الترام الى اليمين ليعبر الكوبرى منعطفا ، اذ أخذه خطفا . تمايلنا ضـد حركته وصـدم بعضنا بعضا بالأكتاف ونحن نسخط ونبتسم معا .

فى لحظة مرت كالبرق رأيت رزمة الكتب تدور يسارا مع قدمه الطليقة لتصـدم وجه جدار المقطورة . أصبح جسمه كله معلقا فى الفراغ بين العربتين . دار حول كعبه الثابت . تراخت عضة كوعه على العمود من عضة الجذب الى اليسار . انقلب العمود من الجزء الناقص من حلقة ذراعه الأيسر . شـده ثقله كعبه الثابت وأزاحه عن موضعه . لا أنسى منظر اصبعه البنصر فى يده اليسرى ، يحـاول أن يستدير ليقبض على العمود . العمود أضخم من حلقته . كدت أسمع حكة هـذا الاصبع ! بالحديد . لاشك أن جلده قد تسلخ .

وهوى وغاب عن عينى . تناثرت الكتب كرش الملح ، ثم طب ، طب . قفزت المقطورة مرتين كأنها هرست ريشة وضعها صبى معابث على الشريط ، مرة بالعجلة الأمامية ، ومرة بالعجلة الخلفيـــة .

فزران من المقاعد . صراخ . حاسب ، حاسب . فرمل ، فرمل . كل من شاهد مصرعه تكهرب جســده وامتقع لونه . أحسســت أن شــعر رأسي كاد يقف ، فالفروة سخنت فجـأة وآلمتنى . ونزلنا وجرينا الى الوراء ربما عشرة أمتار ، فاذا هو ملقى على ظهره فوق أسفلت يكاد يغلى . بترت ساقه (لا أذكر أهى اليمنى أم اليسرى) بترا تاما من فوق الفخذ وانفصلت ، مطروحة بعيدة عنه ، لايزال حذاؤها فى القدم ، رباط الحــذاء غير منحل .

لم يخرج من أحد منا أن يفعل له شيئا . شلنا الارتباك والذهول ، أو قل الخوف ، بل الذعر أيضا . وفجــأة برز كامل أفندى الأزوت من وسط الزحــام . زايله انمحاؤه وربكته . اتخذ هيئة قائد فى معركة . كان أكثرنا ثباتا وأقلنا اضطرابا . خلع جاكتته وألقاها على كتف أحد الواقفين (لعله خشى عليها من التلوث) وأخرج مناديله يحــاول بها كتم العروق المتهرئة ، يتفجر منها الدم الأحمر فى نبضات ، ثم طلب منا بلهجة آمرة صارمة ، لهجة السيد الى أتباعه ، أن نسعفه بقميص ليعصب به

الساق فوق القطع . لازلت أذكر صــوت تمزيقه للقماش رغم الضجة ، وكنت قد اندفعت فوقه ، ربما بتدافع الواقفين ورائى . فمى يكاد يلمس فمه . العينان هما هما صافيتان . الفم مطبق . لم يصدر منه أنين ولا توجع ولا آهــة أو تنهيدة . لم يجز على أسنانه . شمل الوجه استسلام لا حد له . لم يغب عن وعيه ولكنه لم ينطق بكلمة ، أتراه من شدة الهول لم يكن يشعر بأقل ألم . نحن نصرخ من جرح صغير ..

لم أنس الى اليوم نظرته وهى تدور علينا ، تنطق بالود وكأنها تقول لنا تعجبوا معى لمــا حدث . ومع أن نظرتى بقيت مسمرة على وجهه الا أنها زاغت بعد قليـــل لاهتمامات حقيرة أخرى . منظر الدم المتجمد فوق الأسفلت الساخن وقد اغمق لونه . ماسورة العظمة المغروزة وسط الجزء الباقى من الفخذ وحافتها المشرشرة . منظر لحم الانسان من الداخل ولم أكن رأيته من قبل ، الحــذاء المبتور ورباطه غير المنحل .. منظر كامل أفندى الأزوت ، متألم وسعيد معا .

وقبل أن تأتى عربة الاســعاف تدق جرسها كان قد لفظ آخر أنفاسه واكتسى وجهه بالقناع .

وسرت كعــابى لنهاية كوبرى بولاق لآخذ ترام الامــام الشافعى اذ كنت أسكن حينئذ فى شارع محمد على .

(« المساء » ، ١٩٦٤/٨/٣١ ، ص ٨)

المـــوت

حين يتقدم الليل ، تتصنعين الرقـاد ، هادئة كالعصفور ، يأوى متعبا الى عشه ، يضم رأسه الى جناحيه ، ويغمض عينيه ، مستسلما لمشيئـة الرحمن ، توهمين أهـلك وأعزاءك انك قد أغفيت ــ وان كان رقادك على مضض ــ ليناموا هم بسلام .
أهب من سباتى مذعورا ، فى بهمة الليل ، والسكون شـامل ، وكل ما فى الغرفة أشـباح غامضـة ، فأتبين جسـدك الرشيق كالطيف الشفاف ، وأجدك قائمة ، قد انحنى رأسك يكاد يلمس الفراش ، انك تسجدين لله عسى أن يرحمـك ويخفف عنـك العذاب ، تمدين فى حذر الى كوب المـاء يدا يكاد خاتم العرس القريب يسقط من اصبعها النحيلة .. فاذا ما تلاقت نظرتنا ، تبسمت وعدت الى رقادك ، تظنين أننى لم أسمع أنتك المكتومة .

كنت ــ لأنك فى ميعة الصبا ، ورفاهية من العيش توجعين من لسع بعوضة ، فتحملت مبضع الجراح يمزق لحمـك بغير مخدر . وكنت تتأذين من أهون الدواء ، فجرعت أشـكالا

وألوانا من سموم تهد الجبال ، وأنت صابرة ، وكنت تجفلين من منظر (الحقنة) وتحسبين لها حسابا ، فعشت شهورا طويلة وهذه الابرة الكريهـــة تلاحقك وتنغرز فى عضلك كل ثلاث ساعات مرة ، ليلا ونهارا ٠٠ بل لقد رأيتها ذات يوم تغوص فى مقلتك ، وأنت لم تقنطى من رحمة الله ٠ وجاء اليوم الذى اضطرب فيه صدرك ، واختنق حلقك ، وتلاحق زحيرك ، وتلجلج لسانك ، فأخذت تسألينني بيدك عن الطبيب متى يأتى ؟ فلما همدت اليد أيضا تشبثت بى عينك تقول : هــذه نهاية حياتى ! وكان آخر ما انبعث من حلقك بعد ذلك من أصــوات هو أول كلامك وأنت فى عالم الأرواح ٠

دب اليك الداء ، لا كالحية الرقطاء تغرز أنيابها فى حى لتسلها عن ميت ، بل كأفعوان هائل قد انعقد فى حلقات متشابكة، بعضها فوق بعض ، لمسك أول الأمر بذيله فأشلتك اللمســة ونحن لا ندرى ، فلما اطمأن لعجز فريسته أخذ يتلوى ويتماوج ليخلص رأسه متمهلا يسيل لعابه ، متذوقا من قبل للذته ٠ اذا رأى منك بادرة هروب لمسك من جديد بذيله لمسة رفيقــة ، ونحن لا ندرى ٠ واقتضته أيام وأسابيع وشهور طويلة لينفث رأسه فيقيمه ويصــوب اليك عينين كالجمرتين ٠ ما كان أطول عذابك ! أتلوميننا اذا صرخت أنانيتنا اليوم وقلنا : ليتها بقيت مريضة مقعدة ، وظلت بيننا أبدا ٠

وطرق الباب طارق لم يسمعه أحد الا طفلتها الرضيعة فها هو ضحكها ينقلب نحيبا لاينقطع أربعة أيام . من القادم ؟ أيها الادراك المكنون فى جسم رضيع : انطق ولو أهلكك البوح ! ماذا رأيت ؟ والطارق صابر بالباب ، فلما جاءه الاذن دخل علينا ، فانبعثت منها رائحة صلصال مبتل . لم تره عيوننا ، ولكن أرواحنا شعرت بقدوم ضيف غريب : عليه بشاعة العدم ، وجمال الخلقة الكاملة ، فيه اشراق الحكمة فى ذاتها ، واظلام عبث جدواها ، نحن أيها القادم لا نعرفك الا باسم واحد ! هو الرعب ! أحنينا أمامه الرءوس ، ووقفنا بين يديه جهلة حائرين .. ودار بينهما كلام أشرق له وجهها وطاب حديثها ، ورضيت نفسها .

وخرجنا من حيرة الموت الى حيرة أشد قسوة . حيرة الحياة . كانت قد أرخت لنا قبضتها قليلا ، فسارعت وشدتها بقوة وجبروت على أولاد لها ضعاف حائرين .. أكلنا .. ونمنا .. وبعد أيام تسربت أولى الابتسامات الى بعض الشفاه الحزينة ! .

(مجلة « الثقافة » ، العدد ٣٣٣ ، ١٩٤٥/٥/١٥ ، ص ١٥)

(٢)

من ذكريـات الحجـاز

يا جحا .. ودنك منين ؟

الأزمة التى تمر بها الآن علاقتنا بالسعودية تعيد الى ذهنى ذكرى أول منصب لى فى السلك الدبلوماسى والقنصلى .

فى سنة ١٩٢٩ كان الدكتور حافظ عفيفى وزيرا للخارجية فى وزارة محمد محمود التى عطلت الدستور . رشحه لهـذا المنصب عمله السياسى المتصـل وخبرته بالقضية المصرية منذ تطوعه وهو شاب حديث التخرج من مدرسة الطب بالالتحـاق ببعثة الهلال الأحمر الى ليبيا لتكون بجانب المدافعين عنها فى وجه الغزو الايطـالى سنة ١٩١٢ ، ومروره بعد ذلك بالأحزاب السياسية . الى أن انتهى الى حزب الأحرار ، وأشرف على تحرير صحيفة « السياسة » ، ثم شـغله بعد ذلك لمنصب سفيرنا فى انجلترا ، حيث ألف كتابا عن تجاربه بها أسماه « الانجليز فى بلادهم » . يتهمه بعض خصومه بأنه استعان فيه بأبحـاث مرؤوسيه فى السفارة دون أن يذكر أسماءهم .. (الله أعلم) .

لعل اعجابه بنظام وزارة الخارجية الانجليزية التى عرفت ، وهى لا تفتح أبوابها الا لأولاد الأعيان ، كيف لا تقبلهم الا بعد امتحان عسير يشيب لهوله الولدان .. هو الذى أوحى اليه أن يحدث خرقا عظيما فى أنظمة وزارة الخارجية المصرية وتقاليدها .. فقد كانت هذه الوزارة مشهورة بأنها معقل المحسوبية والوسايط ، وأن وظائفها قاصرة على أولاد الأعيان المتمسحين بالأعتاب الملكية ـ ولو كانوا من الهلافيت ـ يدخلونها بغير امتحان .

هذا ما حدث عند انشائها بعد « تصريح ١٨ فبراير » ، وقسط كبير من المسئولية يقع على عاتق حسن نشأت . فلما جاء عبد الخالق ثروت للحكم فصل بجرة قلم أكثر من نصف موظفى السلك الدبلوماسى والقنصلى . لعلها أول حركة تطهير شاملة عرفتها الدواوين عندنا فى تاريخنا الحديث .

بدل « ثروت » طقما ظنه صالحا بطقم حكم عليه بالفساد . وقف عند هذا الحد وعجز عن أن يضع نظاما يكفل تحقيق المصلحة العامة . لعله فطن فى نهاية الأمر الى أن لا عمل لهذه الوزارة ما دام الاحتلال باقيا ، فهى اذن جهاز للزينة ، فلا خطر من جعلها دمية براقة يلهو بها الملك الجالس على العرش . هو الذى يرسم لها مقدار القصب المذهب الذى يتحلى به الزى الرسمى للسفير ، وتراجعا بالفائض الى أن نبلغ زى الملحق الدبلوماسى الذى

لا يزيد فيه القصب المذهب على زيق صغير على طرفى الكمين ، ومن حول الوسط والرقبة .

وكانت وزارة الخارجية تشترط أيضا أن يقدم طالب ودها اقرارا بأن له ايرادا خاصا لا يقل عن عشرة جنيهات .

لم يستطع حافظ عفيفى أن يكسر شرط الايراد الخاص . لعله كان مقتنعا بحكاية « المظهر اللائق » المطلوب لموظفى السلك الدبلوماسى والقنصلى ، ولكنه تحايل على الهرب من ضغط الوسايط بأن قرر عقد مسابقة تحاط بقدر من الضمانات — فى حدود الامكان — ولايكون التعيين الا من نصيب الفائزين ، حتى ولو لم يكونوا من أولاد الأعيان .

كانت أول مسابقة تقيمها وزارة الخارجية ، فجرى فى عروقها دم جديد . البذور الصالحة أينعت ، وتألقت أزهارها . يكفى أن أضرب المثل بالأستاذ محمد عوض القونى ممثلنا الدائم فى الأمم المتحدة الآن ، فقد كان من هذه البذور الصالحة التى كسبتها وزارة الخارجية بفضل هذه المسابقة .

أما أنا فقد جئت فى ذيل الناجحين ، فلا عجب أن اختارت لى الوزارة بلدا يعد فى نظرها فى ذيل بلاد العالم كله . أعنى به جدة المثلثة الحركات — بفتح وكسر وضم — والله أعلم بالنطق الصحيح .

وكما كان بعض العمد والمشايخ يضحك على ذقن الحكومة بتقديم اقرارات بأنهم يملكون من الفدادين ما يتحقق به النصاب المطلوب لوظائفهم ، وتكون الأرض فى حقيقة الأمر ملكا للأسرة كلها — حتى أقارب الأقارب .. كذلك ضحكت أنا على ذقن وزارة الخارجية وقدمت لها اقرارا مماثلا بأن لى ايرادا خاصا قدره عشرة جنيهات شهريا .

ولم يتأخر عنى جزاء هذا التحايل ، اذ اننى أدركت ، حين وصلت جدة فى مارس سنة ١٩٢٩ ، أن الحكومة هى التى ضحكت على . فقد زعمت لى أنها عينتنى أمينا للمحفوظات فى القنصلية المصرية بجدة ، فاذا بى أتبين منذ أول يوم أن ليس فى معلوم الحكومة السعودية شىء اسمه القنصلية المصرية بجدة ، اذ كانت العلاقات مقطوعة بين البلدين .

ليس لنا قنصل فى جدة ، بل نائب قنصل ، لا تعترف به السلطات الرسمية . وكانت مصر قد سحبت القنصل منذ زمن . أما الشيخ فوزان سابق — قنصل السعودية فى القاهرة — فقد بقى بها ، ربما لأن له خيولا تجرى فى السبق ، بدون أن تعترف به الحكومة المصرية أيضا .

كان نائب القنصل لا يدعى للحفلات الرسمية ، وشأنى شأنه طبعا . وظن ذات يوم أن الجو بدأ يصفو حين تلقى دعوة لحضور احدى هذه الحفلات ، وكان مكتوبا على الظرف « فلان

الفلانى ـ بجدة » ، دون أن يضاف وراء أسمه لقب وظيفته الرسمية . قلنا لعله من باب السهو والنسيان ، وذهب فاذا به ـ لشدة خجله ـ يجد مقعده لا بين زملائه رجال السلك القنصلى ، بل بين أعيان البلد المحترمين . جلس وشرب الحساء ، ثم قام وانصرف .

سمعنا أنهم قالوا : « لعل الأكل لم يعجبه ، أو لعله أصيب بمغص مفاجىء » .

كنا اذا كتبنا لوزارة الخارجية السعودية مذكرة تتلقى ردها من وزارة الخارجية المصرية ، تقول لنا : بالاشارة الى مذكرتكم لوزارة الخارجية السعودية قد وصلنا ردها عليكم عن طريق الشيخ فوزان سابق (لاحظ الحرمان من اللقب الرسمى) وهو يفيد بكيت وكيت .. يعنى ، يا جحا ودنك منين !

وكذلك كان الحال مع الشيخ فوزان سابق بالقاهرة . اذا كتب لوزارة الخارجية المصرية مذكرة تسلم ردها من وزارة الخارجية السعودية !

ولم تكتف الحكومة السعودية بتجاهل ممثل مصر لديها ، بل ألغت أيضا الامتيازات الجمركية التى كانت ممنوحة للتكية المصرية فى مكة والمدينة .. أذكر أننى ضربت كفا بكف يوم دفعت مائة جنيه للسماح بدخول دمجانة من الكحول النقى مطلوب لطبيب التكية الذى يعالج فقراء مكة بالمجان .

ولم يأت المحمل من مصر بالكسوة الشريفة خلال اقامتى بجدة ، لا فى سنة ١٩٢٩ ، ولا فى سنة ١٩٣٠ ، ولكن « الصرة » وحدها هى التى جاءت ، لأنها من أوقاف المسلمين الذين يتلون فى كتابهم الكريم « ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم » فوزعنا الصرة بالتعاون مع السلطات التى لم تتجاهلنا هذه المرة .

ولكن ينبغى لى أن أشهد أن هذه القطيعة كانت قاصرة على العلاقات الرسمية ، وبقيت علاقة الناس فيما بيننا مشبعة بالود والاعزاز — لا فرق بين رجال الحكومة وأفراد الشعب .

(« المساء » ، ١٩٦٦/٩/١٢ ، ص ٦)

حفلة موسيقية ((كتيمي))

وصفت لك أول مقامي سنة ١٩٢٩ بجدة ثغر الحجاز ، وبها قبر أمنا حواء طواه عشرون مترا على الأقل .. لو كانت تلبس لحربت بيت آدم ! كان العرى نعمة .. تعال الآن لتشهد معى أول حفلة موسيقية حضرتها بجدة . ولكن ينبغى أن أخبرك أولا أن الحكم الوهــابى الجديد حينئذ (وكل غربال جديد وله تعليقة) كان يحرم الموســيقى تحريما صــارما . لا يسمح لفونوغراف أو اسطوانة بدخول البلاد ، حتى (مزيكة الفم) التى يلهو بها الأطفال تصادر فى الجمرك ، فما بالك بآلات الطبل والزمر . مرت على سنتان لم يقع فيهما بصرى قط على آلة موســيقية ولو معطلة فى سوق الكانتو ، ولم أسمع عزفا من أى نوع كان . أما الغناء فقد نجا من التحريم اذا كان غير مصحوب بعزف ، وغير مستورد ، أى لابد من التزام الغناء الحجازى ، وهو أشبه شيء بالحداء .

حضرت حفلة عرس ذات يوم . جلسنا فى العراء أمام بيت

العريس (الدنيا حر ، درجة الحرارة ٤٥ ، ونسبة الرطوبة ٩٠٪ على الأقل) • على دكة قعد رجل معمم بشال أصفر مبرقش ، ليس معه تخت ولا سنيد حتى ولو بالزن كما كان العهد بسنيدة أم كلثوم فى أول طلوعهـا بالقـاهرة •• يا له من زن عائلى محض !

انطلقت الدودة الوحيدة فى الغنـاء ، أو قـل الحـداء ، والجميع جالسون فى صمت عميق ، كأنما حط على رءوسهم الطير (لابد من هـذه الاستعارة فنحن فى بلاد العرب) وحين يحس المنشد أنه أشبع سامعيه ، وأن صـدورهم متلهفة على وقفـه تتيح لهم التعبير عن طربهم (لعله يحس هو أيضا أنه فى حاجة الى محطة يستريح عندها ويسترد أنفاسه ويجفف عرقه) تخير مقطعا يقف عنده ينهيه بنغمة أعلى مقاما وأطول مدا • حينئذ يدرك الجميع أن الاذن قد جاء منه اليهم بأن يعبروا عن طربهم ، لا قبل ولا بعد • وقبل أن تنتهى نغمة المنشد تلتحم بها على الطبقة العليا ذاتها نفثة مدوية كالهدير من مستمعيه تقول (الله) فى مد طويل ، ثم يعودون الى الصمت المطبق الى أن تأتى المحطة التالية •

صـدقنى ، تمنيت أن نقتبس هـذا التقليـد ليعفينا من الصرخات الفجة التى تقاطع بها غناء أم كلثوم •

لم يرتفع صوت يقول (أعد) • حتى التصفيق بعد نهايـة

الوصلة غير مألوف • قام اليه بعض المخبوطين وربتوا على كتفه ، وبعضهم لثم يده ، هــذا كل ما فى الأمر • لم يطربنى غناؤه بقدر ما أطربتنى لهفة المستمعين حتى أننى شاركت فيها على خــلاف عادتى • كانت تنطق بأن حجرا ثقيلا أزيح عن الصــدور • ان الشعوب تتلهف للجمال •

صديقى حسين شاب حجازى ابن أصل ضخم الجسم ، لا عجب أن كان كبير القلب ، ولعل افراط جسده فى النمو جاء على حساب نمو روحه فلاتزال به مسحة من سذاجة الأطفــال • أقبل على متهللا يبشرنى أنه أفلح هــذا الصــباح فى تهريب اسطوانة مهمة جدا لعبد الوهاب ، هى قصيدة شــوقى (يا جارة الوادى) • لم تمتلىء الجزيرة العربيــة كلها فى ذلك الوقت كامتلائها) بـ (يا جارة الوادى) • سارت بها النار فى الهشيم (عدنا للاستعارة) ودعانى بالحــاح أن أسمعها عنده مع رفقة من أصدقائه •

كانت الوسيلة المفضلة فى تهريب الاسطوانات هى وضعها بين (ثوبين) فى طرد « المانيفاتورة » ، والنتيجــة أن جميــع اسطوانات الحجاز كانت فى ذلك الوقت مقرطمة ، طارت منهــا شطفة • لم يتمتع أحد قط بالاستماع الى أغنية من مطلعها •

الغرفة داخلية لا تطل على الشارع • هــذا شرط مهم ، مزدحمــة بشبان متساندين بعضهم الى بعض ، كلهم بلحيــة

قصيرة مدببة . الجو حار ، مختنق بالدخان ، ومع ذلك فالنوافذ محكمة الغلق .

وفى الغرفة كنبة عريقة (وهذا شرط مهم ثان) . وضع حسين الفونوغراف اليدوى تحت الكنبة ، وجاء بفوطة كبيرة سد بها الفجوة التى يخرج منها الصوت ، ثم رقد على الأرض ، وجاء بالاسطوانة المشطوفة ، ثم غرز فى يد الفونوغراف ابرة رفيعة جدا ـ صنف يختص به الحجاز وحده دون سائر البلاد !

وظهرت على وجه حسين علامات هم شديد وهم يحكم وضع الابرة على الاسطوانة المشطوفة الدائرة .. لقد قصفت منها كلمات « يا جارة الوادى طربت » .. فيتوقف على حسن احكامه ان تبدأ الاسطوانة بـ « نى ما يشبه الأحلام » أو « .. دنى ما يشبه الأحلام » . هـذا ما يمكن استخلاصه من كلمة « وعادنى » . حسين لا يريد أن يفلت منه حرف الدال بأى حال من الأحوال ، فهو يجرب مرة وأخرى حتى يصل اليه دون أن تصادف الابرة الطرف المشطوف .

هكذا استمعنا الى« يا جارة الوادى ».صوت عبد الوهاب كأنه صوت الشيخ على الذى تزعم احدى نساء القاهرة أنه يكلم زبائنها من تحت الأرض .. وهى التى تكلمهم من بطنها .

انتهت الاسطوانة ، وصمم جارى أن يديرها بنفسه مرة

أخرى . هو شاب سورى يستوطن الحجاز ، يلبس جلابيــة سكروتة ، فوقها صديرى سكروته ، فوقه جاكتة ســكروتة ، ورأسه معمم بشال أصفر مبرقش كشال عبد الوهاب الحجاز . هو يجيد عزف العود ، وعوده مكسور وأصبح ترابا ، ويجيد العزف على البيانو ، وهو مفكك موضــوع فى مخزن البضائع فى متجر أبيه . يود أن يشرب ، ولوضبط شاربا لحبس ســتة أشهر ، وكل شهر ستين جلدة على قارعة الطريق وعلى مرأى من الناس جميعا . وهو فوق ذلك يجيد الغناء ، ولكن لا يستطيع أن يغنى فى غرفة مقفولة ، بدون عود ، بدون ويسكي ، بدون حريــة ..

أصر على أن يدير الفونوغــراف بنفســه طوال الحفــلة الكتيمى ، يكاد يلتهمه ويأكله أكلا . وبين كل اسطوانة وأخرى تنهيدة عميقة ، يتمتم بعدها بصــوت حلو (يا ليل) أو (آه أنا عشقت) أو مطــلع دور عراقى ، ثم يسكت كأنمــا غاب عن الوجود . ثم يستفيق ويعود الى الفونوغراف .

لم يكن مدعوا لهذا الاجتماع ، ولكنه سمع أصــواتنا فدخل على حياء الى البيت ، وهمس لى دون أن يسمعه بقيــة جيرانه انه تردد على السلم ، هل يطلع أم ينزل ، نزاع بين أدبه وطربه . انتصر الطرب على الأدب ، فدخل علينا ، ولكن الجميع يعرفونه ، فقابلوه بفرح شديد .

هو ابن تاجر « مانيفاتورة » . أصبحت بعد ذلك لا أمر على دكانــه الا وقفت عنده ، وسلمت عليه . أراقبــه جالســا القرفصاء يبيع اهذه وذاك ، فى سوق قذر مقرف ، هواؤه ملىء بالذباب يضيق به أوسع الصــدور وأشدها حلما وبحبحة . ومع ذلك فهو مبتسم ، ثم يميل على ويغنى لى همسا مطلع لحن ، أو يفتح دولابا صغيرا ويخرج منه ورقــة بها نص دور جديد يحفظه على مهل .

أين أنت الآن أيها الفتى .. أتحت الثرى أم فوقه ؟ .. أتمنى أن يكون عمرك قد طال كعمرى ، وأن أعود فأقابلك يوما لأرى هل الشيخ لا يزال يتمايل من الطرب ويتمتم بمطــالع الأغانى كما عهدته فتى يجلس بجوارى فى الحجرة الحبيبــة فى الحفلة الكتيمى . أتمنى أن تقع عينك على ما أكتبه الآن لتعلم أن صورتك بقيت فى ذهنى رغم مرور أربعين سنة .

وختام هــذا المقال أن أصف لك الحفلة الغنائية الثانيــة والأخيرة الباقية عندى من سجل الحجاز ، لتعرف كيف يتحايل الطرب على كسر القيود وهدم السدود .

نحن فى المدينــة المنورة ، فى بيت رجل ثرى . فى البهو الفسيح فسقية مرمرية تلطف الجو هى فى قاع منور عال يستدرج تيارا من الهواء من أعلى العلالى (أتمنى أن أعيش فى بيت مثله فى القاهرة) . وحول الفسقية اصطففنا مع الغروب على الشلت

حول براد شاى ، للشرب منه مراسيم طويلة ، تغطية الابريق بفوطة ، صب مقدار ضئيل فى كوب صغير لنذوقه فنعلم هل نضج أم لم ينضج . الصبر عليه قليــلا ، صبه من علو حتى تشترك الأذن مع الأنف واللسان فى لذته . كيف تمسك بالكوب الصغير بين اصبعين ، كيف تأخذ منه أول شفطة .. كلها محددة فى كتاب شفوى مقدس .

وسبب اللمة هو الاستماع الى مطرب ، هو هــذه المرة رجل بدين يرخى ضفائر له طويلة ، لولا العقال الذهبى احسبته زوجته لا هو .

أغناء فى مدينة أطهر القبور ؟ ! ولكن مهلا مهلا ، اننا لن نستمع الا لتواشيح دينية ، وقصــائد فى مــدح الرســول ، فلا اثم علينا . ولكننى لاحظت بدهشة شيئا لم أعرف سببه فى مبدأ الأمر . المستمعون يزحلقون المنشد بسرعة لينتقل من دور الى آخر ، ليجىء الوقت الذى يستطيعون فيه بلا خجل أن يرجوه غناء قصيدة « أنا على دينك » .

زالت دهشتى حين تبينت أن أغنية « أنا على دينك » هى نسخة طبق الأصــل لحنــا ونصا ولهجة عامية مصرية لأغنيــة

أم كلثوم التى كانت شائعة فى ذلك الوقت ومطلعها :« أنا على كيفك » .. حينئذ اهتز جميع الحـاضرين من شدة الطرب ، وطفح البشر على الوجوه .

انظر كم كانت بارعة وساذجة معا حيلتهم فى كسر القيود وهدم السدود لينفذ الطرب الى قلوبهم ولو من أضيق ثغرة .

(« المساء » ، ١٩٦٦/٩/١٩ ، ص ٦)

من جراير الموسيقى

بعد أن وصفت لك فى المقال السابق الحفلة الموسيقية الكتيمى فعلمت مبلغ كراهية المذهب الوهابى للموسيقى ، أتابع ذكرياتى عن الفترة التى عشتها فى جدة (سنة ١٩٢٩ و ١٩٣٠) أمينا لمحفوظات قنصلية غير معترف بها (نقبى طلع عن شونة) لأن العلاقات الدبلوماسية بين مصر ومملكة نجد والحجاز (لم تكن مودة الغاء اسم البلد التاريخى وتسميته باسم الملك ـ كأنها عزبته ـ قد ظهرت بعد ، من قولة السعودية ، الهاشمية ـ المتوكلية ـ ماركة عربية مسجلة مع الأسف) قد قطعت قبل وصولى بأربع سنوات تقريبا .

لم يكن هذا القطع لخلاف فى السياسة ، أو لتضارب فى المصالح ، وكلتاهما فى منطقة النفوذ البريطانى ـ بل لسبب لا يخطر بالبال . أتعرف ما هو ؟ انه هذه الفرقة العسكرية الموسيقية (نحاسية ونواقير) التى كانت تطلع من مصر مع المحمل ، لتزفه فى الطريق ، ذهابا وايابا .

أنت لا تدرى كم كانت فرحتنا أيام الطفولة بهذه الفرقة الخيالى ، يوم أن نصطف (واليوم عطلة رسمية) على السلم الرخامى لسبيل أم عباس فى الصليبة لنشاهد نزول المحمل من القلعة ، حيث كانت تنسج على تؤدة خلال العام كسوة الكعبة الشريفة ومقام سيدنا ابراهيم الخليل ، مطرزة بخيوط الذهب ، موشاة بأجمل خط . لا يبدأ العمال نسيجها الا بعد الوضوء وقراءة الفاتحة . الكسوة القديمة تباع فى مكة بالسنتيمتر ، بأغلى الأثمان . وكان فى حينا أسرة عندها قطعة منها ، تتوارثها جيلا بعد جيل ، يشحذها أهل الميت من الجيران لوضعها على الخشبة من قبيل التبرك .

قلوبنا متعلقة بأربع متع ، عيوننا متفتحة لتلتهما ، تكاد تبظ . لو ضاعت منها فتفوتة لم تتم الفرحة . الأولى هى جمل المحمل . انه جمل أبيض مهول ، يشف ويرف من شدة النظافة ، وبره منفوش ، ضخم ولكنه رشيق . انه فى نظرنا لا يمشى بل يتبختر كالغزال ، وندرك أنه هو مدرك لهذا العز كله ، وأنه به فخور . يقال لنا انه لا يأكل الا اللوز ولا يشرب الا ماء الورد ، وانه اذا وصل الكعبة ومقام الرسول عليه الصلاة والسلام ركع وتمرغ على الأرض من شدة الوجد ، وترقرقت الدموع فى عينيه . فاذا عاد بالسلامة أعفى من العمل مهما كان تافها ، وعاش مرفها فى التبات والنبات .

والمتعة الثانية هى تكحيل العين برؤية بهاء هذه الكوكبة من الجياد العربيـــة الضامرة ، أغلبها أبيض كاللبن الحليب ، فما أجمل اذن على هـــذا البياض لمعان عيونها السود الواسعة • ان الحلاوة تقطر منها ، والكبرياء والطيبة معا • انها مثال مجسم للنبل • فاذا كانت شقراء ــ أى ضاربة للحمرة ــ فما أجمـــل غرتها البيضاء ، هى كالهلال ، وبقيـــة من نوره قد لمست كعب أحد الساقين من خلف • ليست هـــذه الزينة عن عفو ، بل عن عمـــد •

لا حيوان يبهج القلب مثل الجواد الجميل الأصيل ، عشقه العرب عشقا مدلها ، وكانت اللغة العربيـــة وهى تتغلغل الى قلبى تحمل اليه أيضـــا حب الخيل • ولا أعرف لغة مثل الفصحى انتبهت لأوصاف الخيل ، وصاغت لكل وصف لفظا •

تمر أمامنا وهى تتوثب ، وتلوى رقابها ، وتهمهم بخياشيمها كأنما لها احتجاج • وكنت مع ذلك ، لا أخفى عليك ــ فالصراحة محمودة ــ أستر يدى وراء ظهرى خشية أن تقع عليها ندعة من رذاذها ، فقد قيل لى بكلام أكيد ان (القوبة) ، وهى جنس من بثور جلدية صلبة تنبت من بذرة رذاذ الحمير • وكنت أقول لنفسى سرا : وربما من الخيل أيضا •

مازلت أذكر ــ صدقنى ــ كيف يلحظ قلبى وسط الفرح هذا الفارق الواضح بين الجيـــاد والفرسان • الجيـــاد جميلة

كالعرائس المجلوة ، آثار العناية بها واضحة ، شبع وري وتطهيم ، والشبع من أكل محترم • أما الفرسان فكالعوسج النابت من الأمية وطين الفلاحة وكروانة العدس وذل الفقر والامتهان وضياع الواقعين من قعر القفة • يصدر منهم صهد خشن وبواخ بعيد • تتلمظ على أكلة حلوة أو لقمة هنية •• فلا نحس أننا تتجنى عليهم أو نهينهم ، ونحن نترنم سرا اذا رأيناهم ، بأغنية كانت شائعة أيام طفولتى ، مطلعها : « ولبسوك الزعطلون يا محمد » •

والمتعة الثالثة أن نرى ــ من بين سائر الفرقة العسكرية الموسيقية الخيالى ــ ضارب الطبلتين الصغيرتين الموضوعتين أمامه على صهوة الجواد ، لأنه هو وحده الذى لا يمسك بلجام • فنعجب كيف يتاح له أن يركب ويقود ويداه طالعتان نازلتان بالدق على الطبلتين • تؤكد لى ذاكرتى أن لجواده كسوة من جلد النمر •

والمتعة الرابعة وهى تمام المتع أن نشنف آذاننا بسماع مارش المحمل ، وكنا نحفظ أيضا مطلع نصه ، وهو يقول : « يا محملنا روح وتعال بالسلامة » •

وبعد كوكبة الفرسان تأتى فرقة من المشاة • الجنود يسيرون فى انتظام والبنادق على الأكتاف ، يتصنعون الجد وفقا للأوامر ، الا أن العيون تنطق بالفرح • لا يحدث تبادل نظرات

ود فى موكب عسكرى بين الجنود والجمهور كما كان يحدث فى موكب المحمل • ومع ذلك لم يكن جو المرح بفالح فى منع قلبى من الاهتزاز وعينى من رقرقة الدمع ، وأنا أحس أن هذا الجيش هو منعة الوطن • لم يتمثل لى الوطن فى صورة واضحة ملموسة الا عند رؤيتى لاستعراض عسكرى ، ولا يتغير هذا الاحساس اذا كان الاستعراض العسكرى لجيش وطنى أو غير وطنى ، لأن فكرة فى ذهنى أسمى من الفوارق بين الأمم •

وأصبح هذا الاحساس يغلبنى فيما بعد حين بدأنا نعرف استعراض مواكب الشباب (من فتيان وفتيات) فى الحفلات الرياضية • هنا يضاف الى الوطن تطلع الأمل والمستقبل • الأساس واحد ، انه الاهتزاز للشعور بمنعة الوطن • والغريب أن الدموع كانت تطفر من عينى اذا شهدت استعراضا عسكريا من حماة بلدى حتى أيام كنت أهفو من كل قلبى أن يسود السلام بين جميع الأمم •• وقد حرمت من لذة هذا الهفوان منذ أن قامت اسرائيل • وتلك هى نكبتى •

هذه الفرقة العسكرية الموسيقية تصاحب المحمل لتزفه طول الطريق الى أن يبلغ غايته فى مكة والمدينة المنورة ثم يعود • ولست أريد أن أكثر عليك فى تاريخ المحمل المصرى منذ شجرة الدر • ستجده مشروحا أوفى شرح فى كتب كثيرة ، ولكنى لابد لى أن أذكر لك أن طلوع المحمل كان دائما بمثابة حملة عسكرية لحماية الحجاج من خطر الاغتيال والنهب والسلب على طول

الطريق • كانت تروى لنا ونحن أطفـال حكايات عن مخـاطر الطريق يشيب لها الشعر • لا عجب أن كان أمير الحج يختار دائما بين كبار الضباط ، ليتمم على السلاح والذخيرة قبل التحرك • تجد فى « الجبرتى » وصفا منفصـلا للاستعدادات العسكرية لخروج المحمل • وكلمة « عرضى » التى تصادفك فى هـذا الوصف وكنت لا أفهم معناها قبل سفرى لاستانبول وتعلمى لغة أهلها هى كلمة تركية معناها الجيش •

وبعد أن وصفت لك الحفلة الموسيقية الكتيمى ، وكيف أن (مزيكـة الفم) التى يلهو بها الأطفـال كانت تصـادر فى الجمرك بعد أن استولى الوهابيون على الحجاز •• تصور كيف يكون الحـال حين تشق جموع الحجاج من غلاة الوهابيين فرقة موسيقية بأكملها ، تلعلع وتنفخ فى الأبواق وتدق على الطبول •

وكاد أن يقع صدام مسلح بينهم وبين حملة المحمل المصرى، وخيف أن تنطلق النيران من الجانبين • ومرت لحظـات رهيبة لا يعلم أحد ماذا كان سيحدث لو أن اصبعا هائجا ضغط على زناد •وأرسل الملك ابنه سعود ففصل بين الجمعين •

فكانت هذه الحادثة هى السبب الظاهر فى قطع العلاقات الدبلوماسية بين البلدين ، أو قل بين الملكين •• وان كانت هناك أسباب أخرى أتركها الى حين •• وكل هـذا كما رأيت من جراير الطبل والزمر •

(« المساء » ، ١٩٦٦/٩/٢٦ ، ص ٦)

هذا الشبل من ذاك الأسد ..

الصحفى الانجليزى فيلبى (هذه هى مهنته فى الظـاهر والله أعلم بالبواطن) . غطس فى بيروت وقب فى موسكو .. أصبح معروفا فى العالم أجمع بأنه « الرجل الثالث » ، لا لأن الصدفة شاءت أن يكون السابقون الى الهرب لموسكو بوحى منه هما اثنان (الدبلوماسى الانجليزى ماكلين وزميله) فصدق وصف فيلبى بأنه « الرجل الثالث » ثالث ثلاثة ، بل لأن هـذا التعبير أصبح يدل لا فى اللغة الانجليزية وحدها ، بل عند الناس جميعا على الرجل الداهية ، المحـاط بالغموض (ولا أقول بالضباب كالنقاد المحدثين عندنا موديل سنة ١٩٦٣) الذى يحب العمل فى خفاء ، ومن وراء ستار . والفضل فى شيوع هـذا التعبير يرجع الى القصصى الانجليزى البارع جراهـام جرين (كلهم انجليز فى انجليز !) لأنه هو الذى أطـلق على بطـل السيناريو الذى كتبه منذ سنين لفيلم « الرجل الثالث » ، وهو رجل أفاق كان يتجر سرا بالمخدرات فى أنقاض برلين بعد الحرب، ولا يبالى من تكون ضحيته .

يا لقسوة السينما ، ويا لفرحة جراهام جرين وهو يرى تعبيره يجرى على كل الألسن • ان الكاتب — لا عالم اللغة — هو الذى يثرى كلام الناس ويلونه ، ويهبه ذوق العصر ودلالته • حقا ان مثل هذا التعبير قد يبلى سريعا ، ويلقى فى سلة النسيان ، ويحل غيره محله ، ولكن قصر عمره لا ينفى طلاوته وقوة نفوذه ولو الى حين ، شأنه فى ذلك شأن الموضة ، أو شأن أغنية خفيفة نسمعها فنؤخذ بها ونحبها ونراها جديدة كل الجدة ، ثم نفتح العين ونغمضها فاذا هى قديمة قدم القبور المهجورة ، مبتوتة الصلة بقلوبنا وأذواقنا • ونعجب كيف سحرتنا ذات يوم ، ما هو الا الأمس القريب •

ولما علمت أن فيلبى الصحفى هو ابن سان جون فيلبى أو الحاج عبد الله فيلبى قلت فى سرى : هذا الشبل من ذاك الأسد • (والعجب أن الابن هرب من بيروت ، وآن الأب مات فى أول أكتوبر سنة ١٩٦٠ فى بيروت) • هل تكون بيروت هى المدينة الثالثة ؟

وقد عرفت الأب (نجم الأسرة ولاريب) فى ثغر جدة سنة ١٩٢٩ حين نزلتها أعمل سكرتيرا لقنصليتنا هناك وأنا فى مقتبل الشباب • انه هو بعينه « الرجل الثالث » الذى رآه جراهام جرين فى أحلامه • هو الغموض والعمل من وراء ستار ، هو حب المغامرة ، والترحيب بالمناكفة • صفات أورثها لابنه

ولاريب • كلا الرجلين أحب الشرق ووهبه قلبه ، وحاك له دسائسه •

كان الأب يتقن من لغات الشرق اللغات الهندستانية والأردية والعربية ، لا العربية الفصحى فحسب ، بل لهجات قبائلها • فباللهجة النجدية كان يتحدث الى المرحوم الملك عبد العزيز آل سعود ، وقت أن كان نديمه وأمين سره ، مع أننى حضرت يوم الحج سنة ١٩٢٩ مجلس الملك فلم أفهم عنه ــ أنا العربى المسلم ــ من قوله الا ثلثه ، وان قلت الثلث فقد أكثرت ، مع أن أذنى كانت متعلقة بكل كلمة ينطق بها •

الأب والابن كلاهما خدم وزارة الخارجية جهرا ، ثم فضل أن يخدمها سرا تحت قناع آخر • الظاهر أن حب الجاسوسية يجرى فى دم الاثنين كليهما ، والطينة واحدة •• رضى فى سبيل تحقيق مأربه أن يهجر زوجته •

كان لفيلبى الأب رأس كالزلطة لو خبطته فى جدار لما أصيب بخدش وانهدم الجدار • لا عجب أن كان داخل هذا الرأس ذاكرة كالحديد وعقل جبار لا يكل ولا يمل • وكان له وجه محمر مقشور ما أظنه عرف الكسوف فى يوم ، ونظرة تنفذ من الحديد ، ما أظنها انكسرت فى حياء مرة • وكانت له لحية كثة بلون الحناء ــ لا تنس أنه من محاسيب المذهب الوهابى ــ وما كان بحاجة الى أن يصبغها بلون أزرق ، اذ كنت

لا أراه ـ ولا أدرى لمـاذا ـ الا فى صورة الرجل ذى اللحية الزرقاء • ولمـا زرته فى بيته تأكد احساسى كما سترى فيما بعد •

من الانجليز من هو غاية البرود دون أن يتصف بثقل الدم، ومنهم الأنيس اللطيف المعشر • أما فيلبى الأب فكان متجهم الوجه ، وعر الجانب ، لو مسحت يد السماحـة على وجهـه لعلقت بها جهامته • لم أره يبتسم الا قليلا • ولا أدرى لمـاذا أيضـا أحسست أنـه يعيش فى عزلة دائمـة ، وأنه ليس له صـديق • ولعل من شروط نجـاح الجاسـوس ألا يكون له صديق بحق وحقيق •

جدة فى الصيف جهنموذباب ، ورطوبة وبعوض • هى حمام تركى ، والهواء هو فوطة الحـلاق الساخنة المبتلة التى يضعها حول وجهك اذا كنت من زبائن صالون لوكس • طفح حمو النيل على جلدى ، كل بثرة كرأس الدبوس ، تتلذذ وتعذبنى بالهرش • غـام بصرى ، العرق لزج كالغراء ، يتصبب منـك وأنت ساكن فى الظل لا تأتى بأقل حركة •

كنت لا أعـرف أكتب الا اذا وضعت تحت يدى ورقـة نشاف • خليج البحر الذى يمر أمام القنصلية مدلوق من زقاق داخل درب فى البحار ، ماء عكر راقد لزج ، ليس هنـاك حد فاصل بينه وبين الهواء الذى يعلوه • الود ودى أن لا أنضو ثيابى وحدها ، بل جلدى أيضا • الملبس النظيف لا يفترق عن

الملبس القذر ، ولم يكن فى مسكنى « دش » ، بل كنت أستحم بالكوز من صفيحة فى طشت غسيل .

وكنا نفر اذا حل المساء من باب الكوشنان فى سور جدة لننفذ الى الصحراء علنا نصطاد نسمة تائهة من الهواء ، ونمر بقبر أمنا حواء ، وهو قبر طوله ٦٠ مترا على الأقل ، لا أدرى ماذا كان سيفعل سيدنا آدم اذا طلبت منه بدل ورق الشجر أن يشترى لها قماشا .. لماذا كان لها دون سيدنا آدم قبر ؟ لم أجد عند أحد جوابا . الحقيقة أن المعر فى حجم القبر ضدنى كلما مررت به أن أقرأ الفاتحة سائلا المولى أن يغفر لها ما فعلته بنا .

فى البحث عن نسمة هواء كنا لا تتطلب من الحديث الا أتفهه وأخفه ، ومن الحركة الا أقلها . لو أعطى لى حينئذ كتاب صغير مكتوب بخط كبير وقيل لى لو قرأته فستشرب علم الدنيا والآخرة فى جرعة واحدة لما وجدت فى نفسى همة لأفتح غلافه أو أرمى بنظرة الى عنوانه . الله الغنى ، التنفس — لا الأدب وحده — مطلوب قبل العلم .

ثم نعود فى الساعة الواحدة أو الثانية صباحا — يا لضيعة الوقت فى فاشوش — فأمر ، والفجر يقترب ، تحت بيت فيلبى الأب فتتسمر قدماى . النور مضاء ، تكتكة التايبريتر فى سرعة القطار . انه يشتغل الى هذه الساعة المتأخرة من الليل

لم يخرج مثلنا لقتل الوقت ، الأن معدنه ليس معدننا ، وهمته ليست كهمتنا • ان له هدفا يتلبسه ويلح عليه فينسى من أجله الحر الجهنمى والعرق اللزج وكل شكوى أخرى من شكاوانا السخيفة • هـذا الهدف هو بناء صرح الامبراطورية ، ولا بأس من أن يقيم الى جانب هذا الصرح قصرا يسكنه فيلبى ذو اللحية الزرقاء ، وقصرا يسكنه فيلبى المستشرق ، وقصرا يسكنه فيلبى الرحالة جواب الصحراء الذى خبر فيها بنفسه كل كثيب وبئر ، وكل ذرة رمل وحجر ، كل حيوان يدب أو يمشى ، كل طيف من أطياف ألوانها البديعة ، الشروق والغروب ، كل دمدمة للجن فيها ، وكل دوى وصفير للريح • ولما زرته فى بيته وجدت فى حديقته داخل أقفاص أنواعا من حيوان الصحراء ، كالظبى والقنفذ والسحلية •• وهو داخل المدينة لا يستغنى عن الصحراء •

أعترف لك أننى كنت أقف تحت نافذته وقتا طويلا ــ جاسوس أمام جاسوس ! ــ أتطلع الى الضوء وصوت التايبريتر وأنا معجب بهمته أشد الاعجاب ، متحسر أشد التحسر ، لا على نفسى وحدها بل على كل أبناء المدارس أمثالى الغارقين فى الجهل والكسل والتراخى والتواكل •• وخليها على الله •• وكنت أتخيل بدافع من اشتياقى أنه يؤلف كتابا عن الصحراء ولا يكتب تقريرا للمخابرات •

وقد اشتريت كتابه الذى ألفه من اجتيازه لصحراء الربع

الخالى ، وأعترف لك أنى عجزت عن قراءته لأنه محشو بألفاظ عديدة من علم طبقات الأرض ، فيه وصف لتركيب كل حجر وكل صخر مر به ، فيه وصف مستفيض للألوان وذوق أطيافها الدقيقة. وأنا — مع الأسف — خريج القسم الأدبى ومدرسة الحقوق ، لم ألقن طوال السنين التى بقيتها فى المدارس كلمة واحدة تفتح عينى على أسرار الأرض التى نعيش فوقها ، أو يبصرنى بالألوان وفروقها . جميع الألفاظ التى استخدمها فيلبى لا أستطيع أن أترجمها الا بكلمـة واحدة هى حجر أو صخر . وقفلت الكتاب وأنا أتحسر مرة أخرى على نفسى وعلى جميع أبنـاء المدارس أمثـالى .

نحن العرب المسلمين لا نعلم شيئا عن الجزيرة العربيـة ، والذى نقرأه فى الشعر الجـاهلى نقرأه وعيوننا عمى ، ويجىء رجل من بلاد الضباب ، لا لغتنا لغته ، ولا ديننا دينه ، فيجوب هذه الجزيرة شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، لا يبالى بالأهوال والأخطار ، ثم يسجل كل ما يراه ، وينشره للناس ، وهو عالم أن الذين سيقرأون كتابه من المتكلمين بالعربية قلة تعد على أصابع اليدين ، والذين سيفهمون منهم ما يقرأون قلة تعد على أصابع اليد الواحدة .

بسبب فيلبى كانت جدة عندى حرا جهنما وذبابا ورطوبة وبعوضا .. وتحسرا لا ينقطع .

(« المساء » ، ١٩٦٣/٨/١٢ ، ص ٨)

مناكفات .. وصغائر

أتابع ذكرياتى عن سانت جون فيلبى أو الحاج عبد الله فيلبى الذى جدد ابنه الصحفى ـ الرجل الثالث ـ بهروبه أخيرا من بيروت الى موسكو تقاليد الأسرة فى الارتباط بالشرق العربى وحب المغامرة والمناكفة والعمل من وراء ستار .

وقد حدثتك من قبل عن لقائى بالأب فى جدة سنة ١٩٢٩ ، ووصفت لك هيأته ولحيته الوهابيـة وبلعه بسهولة ـ وهو الغريب القادم من بلاد الزمهرير ـ لجو جدة الحـار الرطب الذى يقف فى حلقنا ـ نحن أبناء زمتة النيل ـ فيكاد يخنقنا . وكيف كان يحتمل وحدته بعيدا عن الزوج والولد كأنها خف الريشة وهى عندنا أطنان من حديد ، من أجل أن يفرغ دوننا ، وهو فرح منطلق ، الى غرض كالسهم ، لدراسـة بلادنا التى نجهلها فى الجزيرة العربيـة ، والالمـام المـام خبير بأحوال أهلها ، خدمة للامبراطورية البريطـانية ، واعـلاء من شـأن الاستشراق فى أمته .

كانت شـــهرته أنه مستشار أو صـــديق للملك المرحـــوم عبد العزيز آل سعود ، ولو أننى لم أسمع خلال اقامتي سنتين بالحجاز عن لقاء معلن بينه وبين الملك . ولا أظن أنه كان يقابله سرا . والغالب أن شهر العســـل بين الاثنين كان قد انقضى . كان لفيلبى دوره ونفعه وقت أن كان عبد العزيز آل ســـعود فى غياهب نجد ، يحتـــاج أن يكون بجانبه رجل انجليزى يستخدمه فى اتصالاته ــ ذهابا وايابا ــ مع الحكومة الانجليزية ، فيدرك الأمير بفطنته من أين تهب الريح ، والى أى مدى يجوز له أن يمد قدمه ، وان لم يفصح له فيلبى عن الحقيقة كلها .

ثم أصبح الأمير ملكا على نجد والحجاز ، وأطل عرشـــه على البحر ، واستتب سلطانه ، فأصبح الاتصال بينه وبين انجلترا عن طريق ممثل معتمد لانجلترا يقيم فى جدة ، وعن طريق الشيخ حافظ وهبة مندوب الملك فى لندن . والشيخ حافظ وهبة من أبنا ء مصر ، وقد نشر ترجمة حياته قريبا ــ ولا أنسى الى اليوم لقاءنا أول مرة على ظهر الباخرة تالورى التى حملتنا نحن الاثنين الى جدة فى مطلع سنة ١٩٢٩ .

فأصبح يصدق على فيلبى وصفه بأنه « محـــارب » من المرتزقة ، وهذا الصنف من المحاربين ينظر اليه الجندى المحترف بنوع من الاستخفاف والازدراء ، فكانت القنصلية الانجليزية فى جدة تتجاهل فيلبى ، وكان فيلبى يتجاهلها ، بل يعمل أحيانا

على مناكفتها ــ كما سترى ــ كل هــذا فى الظاهر ، فلم يكن ينطلى على أحد زعم الجانبين أنهما فى مباراة لشد الحبل ، كل منهما يجذبه لناحيته ، بل كنا نحس أن الجانبين رغم اختلافهما الظاهر يشدان الحبل معا الى ناحية واحدة هى لندن ، بل كنا نحس أن التجاهل المتبادل بينهما خطة ، ان لم تكن موضــوعة عن عمد ، فهى وضــع براجماطيقى نافع لا بأس من تدعيمــه والابقاء عليه . ففيه تبييض لوجه فيلبى عند أهل البــلاد ورفع لسوء الظن به ، فلعلهم يأمنون له ويفتحون له قلوبهم ويعتبرونه واحدا منهم لا واحدا عليهم .

انظر كيف كان فيلبى يناكف القنصلية الانجليزية .

تسلمنا فى قنصليتنا ذات يوم نسخة من كتاب دورى موزع على جميع القنصليات تقترح فيه القنصلية الانجليزية علينا انشاء ناد يضمنا جميعا ويكون وقفا علينا . لعل قنصل انجلترا كان يفتقد ناديه فى لندن ، يدخل فيجد منضــدة عليهــا كوم من الصحف ، ومقعدا فى ركن يدخن فوقه بيبته . ان شــاء جلس صامتا لا يضايقه أحد ، وان شاء قام الى من أحب ليبادله حديثا خفيفا ، أو ربما استهوته فكرة ربط موظفى القنصليات برباط الأسرة الواحدة ، تخفيفا من وحدتهم فى جدة .

وأعترف لك بلا خجل أننا تلقينا هــذا الكتاب الدورى بفرح شديد وتمنينا أن تتحقق الفكرة ، وحمدنا فى سرنا للقنصل

الانجليزى أنه لم يشأ أن يجعل هذا النادى وقفا على القنصليات الأوربية (فرنسا • ايطاليا • هولندا) وأنه تكرم وتنازل وشمل بعطفه قنصليتى تركيا ومصر • (لم يكن لبلد اسلامى آخر ممثل فى جدة ، اللهم الا ايران ، فقد كان لها قنصل فخرى من أهل البلاد ، من أذكى أهل البلاد • بفضله عرفت لأول مرة شيئا عن البهائية وتاريخها ومدى انتشارها) •

وكنا نحس فى ورود هذا المنشور أن السلك القنصلى ينقسم الى معسكرين : معسكر أوربى ومعسكر شرقى • الأول يستعلى على الثانى وينظر اليه بشىء من الاستخفاف • وقد غضبنا فى سرنا ذات يوم حين دعانا قنصل هولندا لتناول الغداء على مائدته ، فوجدناه لم يدع معنا الا قنصل ايران الفخرى ، كأنه لم يجدنا أهلا لأن نجلس على مائدته مع ضيوف من الأوربيين •

فرحنا بالكتاب الدورى ، ولم يبق لنا من هم الا أن نسأل : ترى كم تبلغ قيمة الاشتراك فى هذا النادى •

وبعد يوم واحد زارنا فيلبى وهو محنق هائج ، وقدم لنا صورة من كتاب دورى وزعه هو الآخر على جميع القنصليات ، يحذرها فيه من جعل هذا النادى وقفا على السلك القنصلى وحده ، ويطالب بشدة أن يفتح أبوابه أيضا لأهل البلاد ، لأهل الحجاز ونجد ، لأننا نقيم فى بلادهم ولا معنى لأن نغلق باب هذا النادى فى وجوههم • انه يكره هذا الاستعلاء البغيض •

سبحان الله ! لم يجيء الدفاع عن أهل البلاد من ممثل مصر أو تركيا أو ايران ، بل من سانت جو فيلبى ، أو الحاج عبد الله فيلبى . هل غاظ فيلبى أنه لن يدخل هذا النادى لأنه ليس موظفا باحدى القنصليات فقال : فيها لاخفيها ؟

لا أدرى .. على كل حال أعترف مرة بلا خجل أننى شعرت بشىء من الحقارة والامتهان لنفسى لأننى خلبتنى الصغائر ، فسارعت الى الفرح بفكرة هذه النادى دون أن أتنبه — كما انتبه فيلبى — الى المعنى الذى قذف به فى وجوهنا .

وهكذا حين أراد قنصل انجلترا أن يفتح علبة النادى قفز له من داخلها عفريت اسمه فيلبى .. فأغلقها ورماها ، وقال : توبة من دى النوبة .

ولم تقتصر مناكفة فيلبى على الحجاز ، بل امتدت الى مصر حين عبر لأوربا ذات مرة . طلب اليه فى السويس أن يدفع رسما مستحقا لادارة الكورنتينات ، فرفض الدفع ، وقال ان هذا الرسم ضريبة تجبى فى مصر ، فأرونى أولا القانون المصرى الذى فرضها .

والواقع لم يكن هناك قانون مصرى يفرض هذه الضريبة — اذ كانت ادارة الكورنتينات منظمة دولية ، هى فى مصر — كقناة السويس — حكومة داخل حكومة . وكان الغرض منها فرض حصار على جماعة الحجاج الى مكة ، لا يقل عن حصار المرضى بالطاعون والكوليرا .

وقـد دفعتنى مناكفة فيلبى للكورنتينات على أن أدرس أنظمتها وأضع عنها بحثا طويلا نشرته فى مجلة « الرابطة الشرقية » حملت فيه على نظـام يسمح بمرور الأوربى المقيم فى جدة دون حجزه فى الحجر الصحى ، أما اذا كان المسافر مسلما ، فسواء أحج أم لم يحج ، وربما كان جارا ملاصقـا لهـذا الأوربى ، فلا يسمح له بالعبور من قناة السويس الا بعد قضاء فترة من الحجر الصحى فى الطور .. كانت القاعدة عند الكورنتينات أن كل أوربى نظيف ، وكل مسلم قذر موبوء .

وكنت أرى بعينى وأنا صبى جماعة الحجاج القادمين من الغرب المنكسرين والغلابة ، وهم يساقون كالأنعام ، وقد أحاط بهم حرس من البوليس والكورنتينات . كأنهم مباءة أمراض فظيعة .. يحدث لهم هـذا وهم فى طريقهم الى الحجاز ، فتصور حالهم عند العودة منه .

ونعود الى فيلبى فنقول : ومع هـذا فقد كان هناك فى الحقيقة خلاف شديد بينه وبين القنصلية الانجليزية يتمثل فيه خلاف عجيب متوارث فى الدبلوماسية الانجليزية فى الشرق بين طاقم الحكومة الهندية ، وطاقم المكتب العربى فى المخـابرات البريطانية ـ كما سأرويه لك فى المقال التالى .

(« المساء » ، ١٩٦٣/٨/٢٦ ، ص ٨)

بين الروبية وريال تيريزة !

قابلت الروبية أول مرة وأنا صبى بالمدرسة الابتدائيـة وقت أن وفد على بلدنا فى مطالع الحرب العالمية الأولى حشد من الجنود الهنود بين ملتح وحليق ، فوقر فى نفسى أن عقلية الهنود من العقد الشائكة ، فلم أفهم حينئذ لماذا أرادوا للروبية أن لا تساوى الا ستة قروش ونصف قرش مصرى • ودعوت الله ألا يخطر على بال هـذا الطاغيـة الذى يعلمنـا الحساب ـ بالضرب ! ـ حتى لا يدخلها فى مسائل « رجل باع واشترى » •

وقابلت ريال مارى تيريزة أول مرة وأنـا فتى أعمـل فى قنصليتنا بجدة سـنة ١٩٢٩ • حقـا انه ريال متميز على وزن مبعجر ، ضخم كأنه الرحى • هو النقد المفضـل حينئذ لدى جميع سكان الجزيرة العربية ، وهو ليس عملة رسمية تنفرد الحكومة بسكها وتعاقب على تقليدها ، بل هو عملة حرة • قيمتها هى قيمة الفضـة التى تحتويها • فيستطيع كل صيرفى أن يسكها أينما شاء ثم يحملها للحجاز ونجد للتعامل بها • لا مثيل

لها فى أى بلد آخر . فلا يعرف ريال ماري تيريزة الفرق بين جواني وبراني . (بعد استمساح الدكتور عثمان أمين !) .

وكما لخفنتنى الروبية فى الحساب لخفننى هـذا الريال ، اذ كان ثمنه حينئذ ٢٣ قرشا مصريا .. سمى بذلك لأن على أحد وجهيه صورة ماري تيريزة النمساوية امبراطورة ألمـانيا وملكة المجر وبوهيميا (١٧١٧ ــ ١٧٨٠) . ولم أعرف حتى اليوم سر تداول هذه العملة فى الجزيرة العربيـة وحدها بعد أن بطل تداولها فى النمسا ذاتها منذ أجيال بعيدة . وكان هذا الريال العجيب كافيا للدلالة بمفرده على هبوط مستوى المعيشة عند متداوليـه ، فلو ملك واحـد منهم ألف ريال لاحتـاج الى جملين لحملها .

هذه المقدمة النقدية لابد منها لأنها خير ما يعكس انقسام السياسة البريطانية فى الشرق حينئذ الى منطقتين : منطقة الروبية (الهند والبلاد العربية الواقعة على الخليج . وقد يدخل فيها العراق أيضا) ، ومنطقة ريال ماري تيريزة (بقية بلاد الصحارى فى الجزيرة العربية) ، فكان لكل منطقة رجالها المتخصصون . لكل من الفريقين عقليته ومزاجه . فريق الروبيـة أوثق صلة بالجيش . يهيم بالاستعراضات العسكرية . يتجمع حول نائب ملك يحـكم الهند كامبراطور منفوخ . يصف الراجات أمامه وتحته ، وقد زينوا بالحلى أيديهم وأرجلهم وآذانهم ، كأنهم

مسوخ فى سيرك • رجال هذا الفريق عمليون ، حلولهم جذرية ، متصفة بالاستعلاء • لا أحلام لهم • همهم الأوحد الاغتناء وجمع المـــال للعودة الى بلادهم بعد التقاعد ليعيشوا مع أمراضهم معيشة الأثرياء • الفروق بين الأجناس عندهم محددة بالحبر الأحمر ، لون العلم البريطـــانى ، والانجليزى ســـيد الســـمر والسود علنا ، والبيض أيضا فى قرارة نفسه • الخبرة السياسية المطلوبة منهم هى التلاعب بالفروق بين المذاهب والأديان •

أما فريق ريال مارى تيريزة فأمره عجيب • شبان أذكيـــاء يتخرجون فى أرقى الجامعات ، اللغة اللاتينية والاغريقية حشـــو جعبتهم الثقافيـــة • ولســـبب خفى يهيمون بالشرق فيـــداعب أحلامهم • هو عندهم بلاد السحر ، فيترجمون كلمـــة السحر بكلمة السياسة ويتطوعون لخدمة الامبراطورية البريطـــانية فى البلاد العربية • فى أذهانهم أحـــلام عن دســـائس ومؤامرات ومغامرات كأنها قصة بوليسية • رحلات سرية عبر الصحراء على ظهور الجمال • أخطار بالليل • فيهم من يأفل نجمه أو تنتهى حياته بعد الخطوات الأولى ، فلا يبقى له ذكر • ومنهم من يبنى له فى نظر قومه مجدا لا يقل عن أمجاد أبطال الأساطير ، كما حدث للورانس •

ليس بين فريق الروبية من يلبس زى الهنود • أما رجـــال فريق ريال مارى تيريزة فيهيمون بلبس العقال • ربما أيضا اعتنق

بعضهم الاســلام ولو فى الظاهر كما حدث لسانت جون فيلبى أو الحــاج عبد الله فيلبى ، ولو أنه فى حقيقــة الأمر من فريق الروبية رغم نشاطه فى نجد والحجاز .

هذا الفريق لا يتظــاهر بالاستعلاء ، بل يتصنع الوقوف وقفة رجال الحاشية من الأمير العربى الذى يدخل فى مصيدته . رسائلهم المتبادلة بينهم مملوءة بمقتبسات من الأدب الاغريقى واللاتينى ، مكتوبة برشاقة وأجمل أسلوب .

وأحب أن تعرف أن اللورد كرومر كان له أسلوب أدبى ممتاز ، يمثل العصر الفيكتورى . تقرأه اليوم مثلا فى كتابه عن عباس الثانى فتعجب بشدة أناقته ولكنك تحس أنه أســلوب أكل عليه الدهر وشرب .

هذا هو فريق مخابرات المكتب العربى الذى بسط نفوذه على البلاد العربيــة ، وبلغ ذروته ابان الحرب العالمية الأولى وأعقابها . فريق لورنس ، ورونالدسفورز ، وكلايتون ، وشكسبير (هكذا كان اسمه) . كان كل واحد منهم فى حقيقة الأمر ملكا متوجا ، ولكنهم بنوا عن عمد شهرة لورنس ، ليكون نجمهم المتــألق ، الذى يجــدد ذكرى زعيمة هــذا الفريق ــ اللادى ستانهوب ــ التى كانت تعيش معيشة الملكات فى جنوب ولاية سوريا فى أواخر الامبراطورية العثمانية .

وقد بلغ من مجد هذا الفريق فى نظر الانجليز أن مستر تشرشل نفسه كان يحب دائما أن يزج بنفسه بينهم •• ولم لا ؟ انه أيضا صاحب أسلوب زخرفى ، يعشق الأناقة •

ولم تكن الخبرة المطلوبة من هـذا الفريق هى التلاعب بالفروق بين الأديان والمذاهب كما هو الحـال فى فريق الروبية ، بل كانت تتمثل فى القدرة على اثارة الأطماع والحزازات بين أمراء الجزيرة العربية • لذلك كان المطلوب منهم أن يدرسـوا طبائع الانسان ومكامن ضعفه ، ومن هنا كانت صلتهم الوثيقة بالأدب والتعبير الفنى •

ويخيل الى أحيانا أن النزعة المسيحية تكمن وراء هيامهم بالشرق ، ففى الكتب التى قرأوها وهم صبية عن حياة السيد المسيح والقديسين صـور لرجال فى زى البدو • وفى الجزيرة العربية ولد السيد المسيح ، وهاجر وجاهد ، ولقى ربه •• أسماء مثل الناصرة وبيت لحم والجلجثة متغلغلة فى قلوبهم ، توحى لهم بشعور مختلط بالحب والرهبة والتعجب • فليس من الغريب قولهم ان سر جاذبية الملك فيصـل الأول كانت ترجع الى أنه شديد الشبه بالسيد المسيح كما يبدو فى لوحات المصورين •

ولكن اياك أن تنسى أن المجد الذى بناه هذا الفريق فى نظر شعبه لم يكن راجعا الى كفاءة فردية ممتازة فحسب ، بل لأن

وراءه هيبة الامبراطورية البريطـانية وثراءها وقوتها وأسطولها •
وكتبت صحيفة « المقطم » ـ صحيفة الاحتلال ـ توهم قراءها أن وصف بريطانيا بالعظمى هو دلالة على عظمتها ، وأنها لا تقهر، مع أن هـذا الوصف هو فى الحقيقة وصف جغرافى يراد به تمييز الجزر البريطـانية من مقاطعـة بريطـانيا الفرنسية ، فالجزر البريطانية أكبر ولذلك سميت بريطانيا الأكبر ، لا العظمى ، فهذه هى الترجمة الصادقة لكلمة « جراند بريتاني » أو « جريت بريتـان » •

فلم يكن يخـلو متاع واحـد من فريق المكتب العربى الانجليزى من صـفائح بنزين ممـلوءة بالذهب أو بريـال مارى تيريزة ، ليوزعها يمينا وشمالا • حقا ان بعض الذهب كان فى بعض الأحيان مغشوشا ، فالسياسة البريطانية لا تتورع عن التزييف ، بل عن القتل أحيانا • فالمستر بالمر الذى رشا بدو صحراء سيناء ، تمهيدا لحرب عرابى لم يوزع عليهم الا جنيهات زائفة ، وان كان لونها لون الذهب •

ان أردت أن تعرف مثـلا للدور الذى لعبته الجنيهـات الانجليزية فى بناء مجد هذا الفريق فاقرأ خطابات المرحوم الملك حسين الى المستر ماكماهون •• ثلاث أو أربع صفحات مكتوبة بأسلوب عرقوبى لا تفهم أوله من آخره ، ولكن كل رسالة تنتهى بسـطر واضـح كل الوضـوح ، التعبير فيه مبـاشر بلا لف ولا دوران •• اسعفونا بالفلوس •• فالذى وصله لا يكفى •

وان قرأت وصف خروج الملك حسين من بلاده أمام الغزو الوهابى رأيت بقية هذه الفلوس لاتزال موضوعة فى صفائح بنزين أخذت طريقها الى قبرص • دبر الانجليز خلعه بالغزو الوهابى ، لطى صفحة وعودهم الكاذبة له باستقلال الجزيرة العربية تحت امارته • ولكن هل تظن أنهم أعطوا الحجاز لقمة سائغة للملك ابن سعود • كلا ، ان الملك على وقع على ظهر السفينة التى أقلته هو أيضا خارج بلاده على معاهدة يتنازل فيها الحجاز لشرق الأردن عن ميناء العقبة • مثل هذه الخبطات السياسية هى دعائم مجد فريق المكتب العربى الانجليزى •

لم يكن المال وراء هذا الفريق فحسب ، بل كان هناك أيضا الأسطول البريطانى (قبل اختراع الطائرات والقاء القنابل الحارقة على القبائل الثائرة) ، وكان يحق لانجلترا حينئذ أن تسمى البحر الأبيض « بحرنا » ، وكثرت فيه بعض بوارجها الكبيرة • انه أصبح بحيرة انجليزية بعد احتلالها لجبل طارق ومالطة وقبرص وقناة السويس • أما البحر الأحمر الغلبان فهو فى نظرها طست نحاس ، هو بحر عربى ، بدليل أن شكله شكل جلابية بكمين منشورين على حبل بعد غسلها « فمين » فى هذا الطست النحاس • لذلك لم ترسل له الا بارجة صغيرة زعراء ، كأنها لعبة طفل تجر بحبل فى هذا الطست • كان يكفى أن تظهر هذه البارجة أمام أى ثغر عربى حتى يتحقق لرجال المكتب العربي تنفيذ سياستهم بلا حاجة الى فرط ذكاء أو احكام

الدسائس . وأعتقد أن مدافع هذه البارجة لم تطلق مرة واحدة. ولولا تعليمات البحرية البريطانية واشغال البحارة أوقات فراغهم فى تلميع الأحذية والمدافع لكان الصدأ قد علا سلاحها الأخرس .

من حسن حظى أن مشهد هذه البارجة لم يفتنى ، فقد رأيتها راسية أمام جدة ذات يوم أثناء اقامتى بها .. ويحزننى أننى نسيت اليوم اسمها .

وكان الانجليز يزعمون أن سياستهم فى الشرق هى سياسة يد من حديد داخل قفاز من حرير ، والواقع أن القفاز كان من الحديد أيضا . هو أحيانا حديد خردة تصنع منه مثل هذه البارجة الهزيلة .

كل هذا المجد طواه الزمن الى غير رجعة . انتهت الهالة التى كانت تحيط برأس لورنس وأتباعه . ولكنها كانت لاتزال تتألق وقت اقامتى بجدة سنة ١٩٢٩ . كان طاقم القنصلية الانجليزية فى جدة يأتم بمدرسة لورنس ، منطقة ريال مارى تيريزة . لذلك لم يكن من العجب أن ينظروا نظرة متعالية الى سانت جون فيلبى ، أو الحاج عبد الله فيلبى ، لأنه فى الأصل من منطقة الروبية ـ كما سأحدثك فى المقال التالى .

(« المساء » ، ١٩٦٣/٩/٢ ، ص ٨)

دروس وذكريات

من حسن حظى أننى تلقيت وأنا لا أزال غشيما فى الكار من رجال القنصلية الانجليزية فى جدة ـ وكلهم من خريجى كامبردج أو أكسفورد ـ حين نزلتها سنة ١٩٢٩ ، درسا نفعنى طوال مدة خدمتى المديدة بوزارة الخارجية ، انه درس لا تجده فى الكتب ، ولم ينبهنى اليه أحد من رؤسائى قبل سفرى من مصر ، ولكنه على ضآلته شديد النفع لأنه كفكف من نفختى وغلوائى واعتزازى بالحصانة الدبلوماسية التى تمنح لرجال السلك الدبلوماسى ، المسافرون من بقية خلق الله تبعثر حقائبهم فى الجمارك ونحن نمرق مروق السهم بين التحيات والابتسامات، أشياء كثيرة ممنوع استيرادها ، أو اذا سمح باستيرادها بيعت بأثمان مرتفعة للأهالى (مثل السجائر والخمور والأقمشة الفاخرة) أما نحن فنشتريها رغم كل القيود بأبخس الأثمان ، بل من عجب أن شركات السيارات تمنح رجال السلك الدبلوماسى تخفيضا لا يفوز به أحد غيرهم ، بل يبلغ الأمر أنه اذا دهست

هذه السيارة انسانا فان صاحبها لا يقدم للمحاكمة ، بل غاية ما يحدث له أن يعاد لبلده • بأمر من دولته ، وقد شـهدت فيما بعد حكومات كثيرة تغمض عينيها على تعامل رجال السلك الدبلوماسى فى السوق السوداء وهو جريمـة يعاقب عليهـا قانونا • حقا انه اغراء شـديد لضعفاء النفوس ، المنفوخين نفخة كذابة من رجال السلك الدبلوماسى ليروا أنفسهم فوق القـانون وأن يباح لهم الاستخفـاف به •• وكان من قوانين الحكومة السـعودية حينئذ تحريم تدخين السجائر فى الطريق العام ، وحق رجال « الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » سوق السائرين غصبا الى المساجد اذا نودى للصـلاة فكان أول أثر لهذين القانونين على نفسى أننى ثرت عليهما • وتمسكت بحق التمتع بحصانتى الدبلوماسية ، ولكننى رأيت رجـال القنصلية الانجليزية يحرصـون على القـاء سجائرهم الى الأرض قبـل خروجهم من باب القنصلية ، ولو خرجوا بها ونفخوا الدخان فى وجوه الناس لمـا تعرض لهم أحد ، ولكنهم لا يرضون المجاهرة بخرق القانون • ورأيت أغلبهم يطلقون اللحى اتباعا منهم لسنة أهل البلاد • ولكن خضوعهم لهذه السنة هو من قبيل الدلع أيضا لا الاحترام وحـده • يحبون أن يضحـكوا وهم يرون أنفسهم فى المرآة ، وأن تثير صـورهم الفوتوغرافية ابتسامات أقـاربهم البعيدين •• وكان من مزاجهم اذا سـأل أحـدهم

سائل — كم الك فى جدة ؟ أجاب — ثلاث لحى .. بدلا من قوله ثلاث سنين مثلا .

تعلمت أن الحصـانة الدبلوماسـية لا تعنى الاستخفاف بالقانون المحلى . بل تعنى أن يكون الممثل الدبلوماسى أشـد الناس حرصا على احترامه . فبقدر الحقوق تكون الواجبات .

أما مع سانت جون فيلبى أو الحاج عبد الله فيلبى فكنت اذا قارنته برجال القنصلية الانجليزية — مع أنه مثلهم من خريجى كمبردج — أجده مثالا غريبا للجرأة التى تبلغ حد البجاحة ، ان نظرته لا تنكسر .. ولسانه حاد قاطع . أقمنا حفلة لتوديع رئيسنا وهو من خريجى أكسفورد . فاذا بفيلبى يقول له أمام الجميع . ليس فيك علامة واحدة تدل على أنك درست فى جامعة انجليزية ، كذلك كان شأنه فى بيته .. مخلوع العذار لا يخشى النقد ، مجـاهرا بما يخفيه غيره ، وكانت مهنته الظـاهرة حينئذ اشتغاله بالاستيراد . وقد زرت معه شركته وأطلعنى على الآلات الميكانيكية التى تركب على الآبار العميقة لجر مياهها ، وكانت عبارة عن سلسلة متصلة اذا تحركت من أسفل الى أعلى نزحت معها المـاء من عمق البئر الى سطحـه . وكنا نعـلم أن الملك عبد العزيز آل سعود يفكر فى تنفيذ مشروع يقضى باسـكان البدو فى مناطق قابلة للزراعة لينشىء فى الحجاز مجتمعا زراعيا مستقرا يتحرر من الغزوات والهجمات المتبادلة بين قبائل البدو .

ولاشك أن الحاج عبد الله فيلبى كان من أكبر المروجين لهـذا المشروع .. كانت المشكلة فى الحجاز هى مشكلة المـاء . نحن فى جدة نشرب اما ماء لا طعم له . تقطره لنا الكنداسـة ، وتباع الصفيحة الواحدة بقرشين وثلاثة ، واما ماء عكرا مستخرجا من الصهاريج الأرضية التى تحفر فى طريق السيل المنحدر من الجبل الى البحر . وكانت ثروة بعض الأغنياء تقاس بعدد ما يملكون من هذه الصهاريج .

لم يكن عصر البترول قد أشرق بعد ، ومع ذلك فمن عجائب الحوادث فى حياتى أننى شـهدت مبادىء أول محـاولة سرية للكشف عن البترول فى المملكة السعودية ، ففى الباخرة تالورى التى أقلتنى الى جدة فى مطلع سـنة ١٩٢٩ لقيت رجلا هولنديا ليس من اليسير على من يراه أول مرة أن ينساه بعد ذلك ، له وجه شديد الاحمرار ، مستدير كأنه مرسوم بالبراجل ، وعلى عينيه نظـارة غامقة هيهات أن تخفى خبث نظرته . انه فاحش الثراء ، ويقيم فى جدة . وقد أشهر اسـلامه ، وتزوج من سيدة فاضلة من أهل جدة ، فاذا به يأخذنى على جنب ونحن لم نتعارف بعد معرفة وثيقة ويطلب منى سرا أن أضع جهازا له بين أمتعتى ليخرج من الجمرك السعودى بدون رقابة . وقال لى انه جهـاز معد للكشـف عن البترول .وان ادخاله للبـلاد غير محرم ولكنه يخشى أن يعبث به رجال الجمرك فيفسدوه . وقد وقعت فجـأة فى حيص بيص ، وحرت ماذا أفعل ، وكان خليقـا بشاب

غر مثلى أن يستجيب لهذا الرحالة ، ولكنى لحسن الحظ أنفت أن يستغلنى هـذا الرجل مثل هـذا الاستغلال السخيف ، فرفضت طلبه •

وهـكذا أستطيع أن أشـهد أن الكشـف عن البترول فى السعودية بدأ سرا فى سنة ١٩٢٩ أو قبلها بقليل •

ونعود الآن الى الحاج عبد الله فيلبى لأختتم بسرد سيرته حديثى عنه الذى طال أكثر مما ينبغى •

ولد فيلبى فى جزيرة سيلان سنة ١٨٨٥ أى بعد أن وصلها عرابى باشا بثلاث سـنوات • وهكذا شاء له القدر أن يولد فى مستعمرة يحكمها التاج البريطـانى ، وينفى اليها كل من ثار ضد الامبراطورية • فرضع مع لبن مرضعته حبه وهيامه بهـذه الامبراطورية وشاء له القدر أيضـا أنه يكون دائما غريبا غير متآلف مع الانجليز المولودين فى انجلترا •• ولمـا بلغ الثامنة من عمره سافر لانجلترا للالتحاق بالمدارس ثم تخرج فى جامعة كمبردج • وبعد أن نجح فى امتحان دخول وظائف الحكومة عين فى احدى الوظائف الادارية بمقاطعة كشمير بالهند فأتقن تعـلم اللغة الهندستانية والعربيـة • ولمـا اندلعت الحرب العالميـة الأولى ظل بالهند الى سـنة ١٩١٧ حين أوفدته حكومتـه الى الكويت ليكون حلقة الوصل بينها وبين الأمير عبد العزيز آل سعود وهو يرقى سلم المجد خطوة خطوة • وهكذا نشأت بينهما

تلك الصداقة والعلاقة المتينة التى استمرت الى وفاة الأمير وهو ملك على نجد والحجاز والعسير أيضا .. الجواد الذى راهن عليه فيلبى هو الذى فاز أما الجواد الذى راهن عليه لورنس فقد خسر وخرج من الميدان .. ولكن نجم فيلبى مع ذلك لم يسطع سطوع نجم لورنس .

وورثه الملك سعود ضمن تركة أبيه الراحل ، فأبقاه فى الحجاز ولكن أغراض السعوديين من فيلبى كانت قد انقضت بعد توطد العلاقة الرسمية بينهم وبين الحكومة الانجليزية .

ولسبب ما لم ينكشف سره بعد . صدر يوم ١٧ أبريل سنة ١٩٥٥ بلاغ من الديوان الملكى بمكة يعلن أن الحكومة السعودية طلبت من المستر فيلبى ــ لا من الحاج عبد الله فيلبى ــ من كبار رجال الأعمال مغادرة البلاد وأن جلالة الملك سعود تفضل بمنحه الأملاك التى كانت له فى البلاد . وقال البيان : ان المستر فيلبى أقام مدة طويلة فى المملكة السعودية كان خلالها موضع الرعاية والاعزاز ولكن الحكومة لاحظت فى السنوات الأخيرة أنه أخذ يتجه اتجاهات غير لائقة بالرغم من تحذيره عدة مرات ، فاضطر جلالة الملك أن يتخذ معه أسهل ما يمكن من الاجراءات ، لصداقته السابقة مع جلالته ، واكتفى بأن يطلب منه الخروج من البلاد دون أن يغمطه أى حق .

ثم يذهب فيلبى الى انجلترا . انه سيعيش غريبا بين أهله .

لذلك بقى فى لبنان الى أن مات فى أول أكتوبر سنة ١٩٦٠ بمدينة بيروت ** بيروت التى غطس فيها ابنه الصحفى فيلبى سنة ١٩٦٣ ثم قب فى موسكو ** وهكذا كان بيروت حلقة الوصل بين سيرة الأب والابن *

(« المساء » ، ١٩٦٣/٩/٩ ، ص ٨)

يوم الحشر على الأرض

أكتب مذكراتى عن الحجاز (١٩٢٩ ـ ١٩٣٠) وأظل ألف وأدور على الأطراف النائية ، كأننى أهرب وأنا خائف من الوصول الى قلب المعمعة فى هـذا اليوم المهول ، ولكنى أعلم وفى دمى مس من القشعريرة التى تسبق الحمى العائدة أن وصفه لابد آت ، فلا معنى ولا طعام لبقية الأيام دونه ، بل لا وجود للحجاز حينئذ لولاه ، يوم تختصر ساعة من ساعاته عمر ١٥ قرنـا وأكثر وتأرجح وجدان أمة عريقة عالمية ، بأشواقها وأشجانها .

انه وعاء صغير فى حساب الزمن ولكن سيل العواطف التى صبت فيه وحـده طوفـان يغرق الدنيـا ويفيض : الدعـاء والابتهالات ، الندم والتوبة ، بالتمتمة والجهر ، الدموع التى غسلت القلوب ، الوجد الذى قلقل أصحابه من كل فج عميق ، من أقصى الشمال والشرق الى أقصى الجنوب والغرب .. لافح لأنه يوم الوقوف بين يدى الخـالق ، ندى لأنه يوم الأخوة بين البشر .

اننى فى حاجة لكى أصفه الى أن تتحفز أعصابى فى اتقاد لا يقف الا على قيد شعرة من حد التمزق والهلاك .. أن تنفك من أغلالها لتقوى على التحليق .. أن تتلبسنى كل شياطين عبقر .. أن تفضى الى اللغة بمكنونها الضنين .. أن تهبط على مجنحة خفى الألفاظ والمعانى ، يسوقها الحب .. أن ترفرف حولى وتوشوش لى بالسر فى أبهى صورة ، لا تترفق بى هذه العاديات ، بل تفترسنى وتنهش قلبى ، ولكن هيهات ! اذن فكل الذى يخرج من أحسن طوقى لن يكون الا كاللون الباهت ، أو الصوت المحشرج الذى يكاد لا يبين .

انه يوم ٩ من ذى الحجة ، وقفة عرفات : ملايين من الخلق تكفنوا وهم أحياء ، أرواحهم مشعشعة ، وأبدانهم مشدودة كالقوس . وجوههم وأذرعتهم مرفوعة الى السماء ، ترجهم فرحة اللقاء والعشم فى وجه الله ، فى صدق الوعد ، لا يمتلىء الجو — لا قط ولا أبدا امتلاءه هذا اليوم بزئير آدمى بطلب الرحمة .

انه يوم الحج ، بروفة من هذه الدنيا ليوم الحشر فى الآخرة . فاذا انفض الجمع مع غروب الشمس بقيت على الوادى أكداس هائلة من أدران الانسان وهلاهيل ضعفه ، ظنوا أنهم قد تحللوا منها ، فاذا هى لاتزال عالقة بأكفانهم البيض ، يعودون بها الى معترك الحياة ، تسبقهم فى الدخول اذا رجعوا الى بيوتهم .. وكيف ينال الرحمة من لا يذنب .

الحمل خفيف على جدة أغلب العام • تتنفس براحة رغم الرطوبة الشديدة لأن الهواء كله لسكانها وحدهم ، كل وجه يعرف الآخر ، والسحنات متقاربة ، الذباب يتملك ســوق البلد ، بعينى رأيت الجزار يكشط بجهد أسرابه اللازقة باللحم بسكينه ليستطيع أن يقطعــه للزبون • القنصلية مضعضعة ناعســة ، لا تستيقظ الا يوم أن يطوف المنــادى معلنا عن قرب قيــام الباخرة « تالودى » أو « الطائف » ، فمن كان عنده نية سفر ، أو لديه جواب ، أو طرد فأهلا وسهلا به فى مكتب بواخر البوستة الخديوية ، لابد أن تثبت وجودنا فنسهر تلك الليلة فى حشو مظروفين كبيرين ، كل محتوياتهما مع الأسف حسابات وجرد مخازن وطلب أجازات •

ليس فى القنصلية من يركع أو يسجد ولو مرة بالنهــار أو بالليل •• اننى لا أنام رغم الحر الشديد الا داخل ناموسية وأبلع ثلاثــة أقراص من الكينين كل يوم ، اتقاء للمــلاريا ، البعوض يبرقش حجرتى ، اننى أعلم أن من بينه بعوضــة الحمى الصفراء ، ولكن ميكروبها لم يدخــل الحجــاز لحسن الحظ والا لكانت الطامة التى لا سبيل لمقاومتها •

الطباخ الصومالى ، هذا الشاب الوسيم أبو رقبة طويلة ، المفتون بالثياب الزاهية الألوان ، آكل من صنع يده ثلاثة أيام ، ثم أنتظره ثلاثة أيام ، هكذا بالتوالى طوال عامين دون أن يحدث

أقل خلل فى الانتظام ، لأنه يرقد كومة من اللحم ترتجف وترتج فى ركن الحجرة من حمى الملاريا ، لو مسه تيار كهربائى لما كانت هزته أخف ، من لقائى به وأنا أحب الصومال وأهله حبا شديدا ، كان مثالا بديعا للاباء والنخوة والاعتزاز بالنفس ـ داخل غلاف من البساطة والبقاء على الفطرة .

استمعت اليه بلذة كبيرة وهو يروى خروجه مع الجمال للمرعى فتغيب عن أهله موسم العشب كله ، وجهه وهو يحدثنى يتلألأ بلمسة الهواء الطلق واحتضان الخلاء ، ولا غذاء الا اللبن والتمر الجاف . كان فى جدة متوحشا ، ولكنه مع ذلك مزهو كالديك حين يخرج مع المساء يتبختر فى سوقها . يخب فى ثياب زاهية الألوان ، وعلى رأسه لفة عمامة ملونة أيضا ، وقد وضع عصاه وراءه على كتفه ودلى من على طرفيها ذراعيه . هذه هى بهجته .

وكان لابد أن يكون أول شىء أراه فى الصباح حين أطل من النافذة . انه استيقظ مع الفجر قبلى وخرج ليكسب رزقه . الصباح رباح . أنه رجل أصلع بدين يلبس مايوه بيكينى ، لم أره الا من بعيد . انه فى قارب من حجم جذع شجرة محفور يدفعه بمدراة يغرز طرفها فى قاع المياه الضحلة فى لسان البحر الذى تطل عليه نافذتى ، ويغرز طرفها الآخر فى الطين ، وكنت أعجب كيف لا تخترقه وتبرز من فوق كتفه ، حتى اذا وصل الى

حيث يريد ترك القارب وغاص فى المـاء وخرج يحمل بين ذراعيه وفوق صدره كتلة كبيرة من الطين الأغبر اللزج ، يلقى بها فى القارب فيهتز ، ثم يعود ويغوص ، فاذا امتلأ القارب عاد به الى الشاطىء وكوم فوقه هرما صغيرا من الطين ثم تعود المدراة فتنغرز فى ابطه ليستأنف جنى محصوله .

يارب ! يا مقسم الأرزاق . تمنح بعضها من خرم ابرة . هذا الطين أفضـل من الأسمنت عند أهل جدة .. ولم أدر كيف كان يباع ، أبالوزن أم بالكيل .

اعتدت الطست لأستحم ، ليس فى الدار ميـاه جاريـة ، والبانيو ترف لا نحلم به . ولكن لابد من انتظار السقا ، امرأة من التكارنة ، يأتون من غرب افريقيا ، فيقطعون القارة سيرا على الأقـدام ويعبرون البحر الى بر الحجـاز ، فتخطفهم القبـائل وتسترقهم ، فاذا بالحر القادم لبيت الله يصبح عبدا بظلم أهـل الأرض التى بها بيت الله .. فاذا وصل الناجون الى جدة سكنوا فى أطرافها فى بيوت من الصفيح ، ويستعينون على الحياة بتشغيل النساء فى حمل المـاء الى البيوت دون أن يقبل الرجل ــ فما بالك بالمرأة ــ امتهان كرامته بالخدمة فى البيوت .

ها هى قد دخلت ، اندلقت ضحكة عريضـة على وجهها ، فوق ظهرها طفل مربوط له رأس كالشمامة هاوية الى ظهره ، وفوق رأسها صفيحة المـاء ، قد غاضت فيها أظافرها الخمس .

لو دققت لمـا عشت . هذا المـاء يأتينا من الكثافة التى تقطر المـاء الحلو من ماء البحر . انه ماء خال من الأملاح ، لا يتملق فمك ، وكانت زجاجة من مياه فيشى أوافيان تعد فى نظرنا من الفاكهة النادرة .

أما أهل البلد فيشربون من مياه الآبار التى يحفرونها فى طريق السيول ويقيمون على حوافيها سدودا متدرجة فى الارتفاع حتى لا يقع فى البحر الا زبد المـاء دون قاعه المملوء بالحصى والشوائب . انه ماء مبيض اللون ، تحاشيت أن أشربه وأنـا فى ضيافة بعض أهل البلد رغم الحاحهم على .

أنت ترى أننى لا أزال ألف وأدور على الأطراف النائية .

ورق . ورق . ورق .

كل غربال جديد وله تعليقة . حين بدأت عملى لأول مرة فى القنصلية « أمينا لمحفوظاتها » ــ هـكذا كان اسم وظيفتى حينئذ ــ لحظت فى الفترة الطويلة التى فيها « التسليم والتسلم » بينى وبين الزميل الذى حللت محله أن وجهه كان يصاب بغم وضيق وهستيريا اذا جاء البريد فوجد معه زكيبة كبيرة حبلى فى شهرها التاسع ، حشوها ورق له خشخشة كالأنين اذا لمستها يد .

كان ينادى « الحاجب » ويأمره بأن يلقيها فورا فى صندوق الزبالة ، فليس عندنا سلة مهملات تتسع لها ، ولا يليق بكرامة القنصلية أن تبيع محتوياتها روبابيكيا علنا أمام الجيران .

ولما سافر وتربعت فى مقعده وتسلمت أول زكيبة قررت ــ لأننى غربال جديد ــ أن أفتحها ، فاذا بها مجموعة كاملة من كافة مطبوعات الحكومة . لم تبق وزارة الا لها فيها نصيب . يا له من كنز ثمين .

هذه أولا ثلاثة أعداد من « الوقائع المصرية » .. وكل عدد

لا يقل عن ٢٠٠ صفحة • انه لا يسجل فحسب كل أعمال الحكومة — فى العاصمة والأقاليم — بل يكاد يعد لها أنفاسها • ففى صدره نص كل ما صدر من قانون أو مرسوم أو ديكريتو أو أمر ملكى ، ثم نص كل قرار أصدره محافظ أو مدير بانشاء قرافة أو ابطال قرافة ، بتحديد مواقف جديدة لعربات الحنطور وحمير الأجرة ، ثم نص جميع الاعلانات القضائية التى يحار المحضر فى تسليمها لأصحابها لأنهم غائبون أو لأن عناوينهم مجهولة • ويلى ذلك بيان كامل لكل عقار سيباع جبرا ولكل منقول محجوز عليه • من بعدها اعلانات عن قسائم التحصيل (مع ذكر أرقامها) التى ضاعت من الصرافين أو أمناء الخزانة • واذا كان الموسم موسم امتحانات فسنجد بالوقائع المصرية « نمر التلاميذ » فى جميع المواد مع ترتيبهم فى امتحانات الابتدائية والكفاءة والبكالوريا وجميع الشهادات العليا • اذا كان الموسم موسم برلمان فملحق بالعدد نص كامل لمحاضر جلساته وتقارير لجانه •

بذمتك ، هل يجوز التفريط فى هذا الكنز الثمين ؟ قررت الاحتفاظ به • ومددت يدى وأخرجت « المجلة الزراعية » التى تصدرها وزارة الزراعة • هالنى وأنا أتصفحها ثراء المعلومات المبذولة بالمجان وأحسست أننى كنت أجهل كل شىء عن الطين والزرع • كان هذا شعورى أيضا كلما مددت يدى وأخرجت مجلة أو نشرة • المجلة البيطرية ، كأننى كنت أجهل كل شىء عن

الجاموس والبقر والكلاب • كيف لا أقرأ هــذا البحث القيم عن « الحيوان عند الفراعنة » • لنتركه الى فرصة أخرى •

نشرة الأمراض المعدية فى عموم القطر ، لابد لى من قراءتها لأطمئن على صحة أهــل بلدى • نشرة مصلحة الجمــارك عن الصادرات والواردات ، وهى شهرية وموسمية ونصف موسمية وسنوية ، كيف لا أقرأها لأطمئن على ازدهار تجارتنا • نشرة المواليد والوفيات فى الوجهين البحرى والقبلى ، بيانات لذيذة لم تكن تحمل حينئذ وجه بعبع •• ألا أريد أن أعرف أى بلد ضربت الرقم القياسى فى الوأوأة وفى النواح • نشرة ببيان عدد السفن المــارة بقناة السويس وجنسية أعلامها ، شىء جميل ، شىء جميل • فى قعر الزكيبة « مجلة وزارة الشئون الاجتماعية »، كيف لا أقرأها وسلامة موسى رئيس تحريرها ؟

رفضــت باباء وشمم أن ألقى هــذا الكنز ــ أى هــذه الزكيبة ــ فى صندوق الزبالة • قررت الاحتفاظ بها ، لأقرأها على مهل ، بل كنت أتوقع أن يطلبها منى بعض أعضاء « الجالية المصرية » ليبحث عن شىء يهمه •

وساقنى هذا الحرص الى القاء نظرة الى سلة المهملات ، وجدت بهــا الأعداد القديمــة من « الأهرام » و « المصرى » « الالستراسيون » الفرنسية ــ وكانت القنصليــة مشــتركة

فيها • وقررت أيضا أن استنقذها من الضياع وأحتفظ بها ، فقد نحتـاج الى الرجـوع اليها • وكان لابد أن أقيد كل شيء في « سجل المكتبة » برقم مسلسل ، يتم بمقتضاه جرد هذه المكتبة كل سنة مرة مع ارسال محضر الجرد للوزارة •

بعد شهر واحد امتلأ الدولاب المخصص للمكتبة في غرفتي• صرفت مبلغا كبيرا لاعداد رفوف داير مايدور ، امتلأت في بحر ثلاثة أشهر • زحفت على بقيـة حجرات القنصلية والدهاليز ، وكدت أبلغ بير السلم • كععت القنصلية مبالغ طائلة • ضـاق بي الموظفون ذرعا • ثقل دمي عليهم • انشغلت بالتستيف والترتيب، فلم تبق لي دقيقة واحدة لأقرأ ولو سطرا واحدا في هذا الكنز الثمين •

لم يأتني أحد ليطلب « الوقـائع المصرية » أو « المجـلة الزراعية » • كنت أول الأمر أحس بزهو شديد وأنـا أتأمل المكتبة في حالة النشوء والارتقاء ، ثم بدأ شيء من الوجل يدب في قلبي • غلبني شعور قوي حـاد بأنني لست أنـا وحدي ، بل العالم كله مهدد بجيش يطاردنا ، أو بحر عظيم يزحف ليغرقنا، بحر من الورق ، هـذا هو طوفان العصر الحديث • دمدمة هذا البحر هي من دقدقة ملايين الملايين من كاتبي « التبريتر » ، وهمهمة ألوف مؤلفة من مطـابع ضخمة ، تتكاثر كالفطر أمام

العين ، لها أشكال الحيوانات البدائية المتوحشــة . فى ذهنى صوت نهش وتمزيق بالأنياب لعقول البشر وأرواحهم .

ومنذ حماقتى فى أول قنصلية لم يفارقنى الاحساس بضغط هذا الطوفان على صدرى ، زاد وطـأة ، على حين اشتركت فى بعض المؤتمرات ، وحين حضرت مرة دورة الأمم المتحدة . لا أستطيع أن أصف أكداس الورق التى كانت تنهال على ، ولعل الدافع لى على كتابة هــذا المقال أننى سافرت أخيرا الى بيروت لأحضر مؤتمر كتاب آسيا وافريقيا بحقيبة تزن ١٠ كيلو ، وعدت ووزنهــا ٣٥ كيلو . والفرق ثق أنه ليس هــدايا وأدوية ، بل ورق .. ورق .. ورق .

لا أمل فى « نوح » جديد ينقذنا . اذن لابد من الاسراع بايجــاد توازن بين قــدرة الورق على الهجوم وقدرتنــا على الدفاع . هل هو العقل الألكترونى ؟ هل لابد من اختراع لغة جديدة رمزية تحل فيها الكلمة الواحدة محل سفر كامل ؟ أم الحل أن تؤلف جمعيات فدائية تتولى تخليع أشجار العالم كله لتهدأ صدورنا من اللهاث وينزاح عنها هذا الطوفان المخيف ؟

علمت بعد عودتى من بيروت أن حريقا قد التهم محتويات

مخزن احدى شركات توزيع المطبوعات ، وكنت أمر به فأشيح بوجهى عنه ، فلا شيء أثقل وزنا ودما من الكتاب المرجوع ، الراقد كالميت . انه كالقطار لاشيء أخف منه فى جريه ، ولا أثقل منه اذا تعطل ووقف . أؤكد لك أننى خشيت أن يقبض على بتهمة اضمار نية احداث الحريق فى هـذا المخزن . فالحق هذا هو ما كنت أتمناه كلما مررت بهذا المخزن المخيف .

(« النساء » ، ١٩٦٧/٤/١٠ ، ص ٤)

مذكرات فنان غشيم فى الكار ..!

أتابع ذكرياتى عن أول لقاء لى بفن الأوبرا ، لا يدفعنى على أن أرويها هنا فأتعرض لتهمة التحدث عن النفس الا أملى فى أن تكون ذات نفع لك ، والنفع عندى يشمل الابتسام ، فلاشك أن الجيل الحاضر من حقه أن يلم بتجارب الجيل الماضى وما لقيه فى طريقه من عثرات وأوهام حتى لا تتكرر هذه العثرات وهذه الأوهام ، فلعل العظة ان جابت ألف مرة أن تصيب مرة . ولاشك أن من واجب الجيل السابق ألا يكتم الشهادة ، فلا نجاة لكل جيل من ألم شعوره بأنه باق متصل الأثر ، لأنه يورث الجيل اللاحق أفضل ما عنده ، عصارة تجاربه ، عسى أن يحقق ما عجز هو عن تحقيقه .

ولا يهم الجيل الحاضر أن يعرف عن الجيل السابق كيف كان يأكل ويشرب وماذا كان يلبس ، بل لا يهمه أن يعرف ماذا كان يقرأ أو حتى ماذا خلف وماذا كتب ، بقدر ما يهمه أن يعرف النمو الروحى لهذا الجيل السابق أن تنكشف له الستار

ليرى من ورائه صراع النفوس مع المبادىء والمعتقدات ، التحول من الشك الى اليقين أو من اليقين الى الشك ، تلمس الطريق فى الظلام عسى أن تؤدى سراديبه الملتوية الى مخرج يدل عليه من بعيد بصيص من نور ، يومض وينطفىء ، تخبط البحث عن مرفأ يعصم من الغرق • راكب الزورق الذى تتقاذفه الأمواج ، يقذف بحبل يربطه على وتد يمثل وحده الثبات فى عالم مقلقل •

ومن أسف أن هذا النوع من المكاشفة غير معروف عندنا ، ان أردنا أن نعرف أحدث مثل له ينبغى أن نقفز الى الوراء قفزة طويلة لنصل الى كتاب « المنقذ من الضلال » ، فانه ترجمة ذاتية روحية للامام الغزالى • لم يخجل من الاعتراف لنا فيه بتخبط ضلاله قبل أن يهتدى الى مذهب يؤمن به •

أما نحن فنتحرج اليوم من التحدث عن زيغ لنا سابق ، حتى بعد أن نتوب الى الرشد فنندم وتصدق توبتنا ، نخشى الاعتراف بالضلال الذى خضناه من قبل الوصول الى نور الهداية •

لم يخجل الكاتب اليونانى كازانزاكس — وأغلب الظن أن جائزة نوبل كانت ستمنح له لو امتد به العمر — أن يروى فى كتابه الفذ « رسالة الى الجريكو » قصة تخبط روحه فى البحث عن عقيدة •

واذا كانت ذكرياتي التي أرويها هنا لا ترتفع الى هـذه القمة الأوليمبية ، فانها ــ رغم تواضعها وقلة خطرها ــ تنبع من نفس الرغبة فى أن يكشف الجيل السابق عن تجاربه لينتفع بها الجيل الحاضر •

رويت لك فى مقال سابق خط سيرى من القاهرة الى جدة ثم الى استانبول • وقد تفضلت وزارة الخارجية فنقلتني بعد تركيا الى ايطاليا ، فكان هـذا أول لقاء لى بالحضارة الغربية • ومن حسن حظى ، أن هذا اللقـاء الأول لم يتأخر فلا يلحقنى الا وأنا شيخ متبلد الذهن ، عاجز عن التأثر والاستيعاب ، ففى سـنة ١٩٣٤ وصلت الى روما ــ عاصـمة الرينسانس ، ديار ميخائيـل أنجيلو ورفـائيل ، موطن دانتى وجاليليو ، بـلد فراى وروسينى وبوتشينى ، حتى ماسكانى كان لايزال على قيد الحياة •

وكنت قبل وصولى الى روما قد قرأت عن الحضارة الغربية وفنونها وآدابها حتى كدت أتلف مقلتى • دراسـة كبار الرسامين فى صور لهم فى الكتب لا فى المتاحف ، وكذلك ان فاتنى طول الاستماع الى الكونسير الى الكونسيرتات والأوبرات ــ حتى عن طريق الاسطوانات فانى كنت أوشـك أن أعرف كل شىء عن حياة كبار الملحنين فى تاريخ الموسيقى • أعرف أسماء أعمالهم وظروف تأليفها • كنت خبيرا فى الرسم وأنا أعمى ، وخبيرا فى الموسيقى وأنا أصم •

كنت « ريدزدايجست » لمكتبة كبيرة ، لا أزيد أنا الآخر عن أن أكون كتابا ــ فى حجم كتاب الجيب ــ مدفونا فى مخزن مظلم لا يرى النور ، وفى بطنه علم كثير • وكان خيرا لى ــ وهذا شيء لم أدركه الا فيما بعد ــ أن أقرأ نصف أو حتى ربع ما قرأت ثم أذهب الى المتاحف وأستمع الى الموسيقى ضعف ذهابى واستماعى •

وكان قد بقى فى نفسى من هذه القراءة أثر الرحلة الى روما على الشعراء الرومانسيين الانجليز ، بيرون وكيتس وشيلى ، وكيف أن الهة الشمس جادت لهم بخير ما عندها على شاطيء خليج نابولى ، بين اشراق النور وزرقة البحر وصفاء السماء • ما أبعد بهجة هذه الألوان عن كآبة ألوان بلدهم انجلترا ، تراب الفحم يهبط على مدن ضائعة فى الضباب ، يجرى فيها الناس كالأشباح الضالة ، وأجسادهم ترتجف من شدة البرد •

وعرفت كذلك أثر الرحلة الى روما على جوته ، فقد كان اجتيازه لجبال الألب من الشمال الى الجنوب حدا فاصلا فى حياته بين الضباب والنور ، الغموض والوضوح ، بين الهمجية والحضارة •

فكان يخيل لى قبل وصولى أننى اذا حللت بروما سأسجد

على الأرض لألثمها ، وأتمسح بأعمدة كنيسة بطرس وأرقد على سلم الأوبرا •

ولكن عبثا بحثت عن هزة قلبى ، عن أثر لانبهارى •• وجدت أن النور فى جو روما ان لم يساو فهو لا يزيد عن النور فى جو بلدى الذى لا يعرف الضباب •

شتان فى الرحلة الى روما بين رجل يجيئها من الشـــمال ومعه تركة ثقيلة من مخلفات همجية ، قبائل الفاندال والفيو نيون والفايكنج ، وأحزابهم ، وبين رجل يجيئها من الجنوب ، هو من أبناء الشرق ، فى جعبته كنز ثمين من حضـــارة كانت لا تقل عن حضارة أوربا ، ومن ثقافة ان اختلفت عن ثقافتها فهى لا تقل عنها شمولا ولا قدرة على التملك وعلى اثارة الاعجاب والولاء •

ومع ذلك لم أجهل أنى قادم من بلد متخلف ، سبقه الزمن شوطا طويلا ، فكان من الواجب على أن أجرى لألحقه ، حتى اذا ساويته استطعت أن أنفصـــل وأشق طريقى مستقلا عنه ، واذا أخذت منه فسأعلم أننى سأعطيه المقابل •

وبدأت أتعلم لأول مرة ـــ بالاستماع والنظر ـــ لا بالقراءة، فأدخل المتاحف وأغشى الأوبرا وحفلات الكونسير ، مواظبـــا كأننى تلميذ يطمع فى جائزة « حسن السير والسلوك » •

ولا أكتمك أيضا أنني اندفعت في هذا التتلمذ لأنني أنفت أن أجلس في المآدب الرسمية بجوار سيدة جميلة مثقفة فتجدني لا أحسن الكلام الا في الأكل والطبيخ وآخر الأفلام ، فاذا أدارت وجهها عني والتفتت أغلب الوقت الى جارها في الجانب الآخر ، وكان انجليزيا أو فرنسيا أو ألمانيا ، دار الحديث عن المعارض والكونسيرات .. انى أقترح على وزارة الخارجية أن تجعل النجاح في الامتحان عن تاريخ الفنون الجميلة شرطا أساسيا لدخول السلك الدبلوماسي والقنصلي .. سينتقل مبعوثوها ـ بفضل هذا النجاح من مرتبة « موظف » الى مرتبة « بني آدم » .

رأيت كيف وصلت الى روما وأنا مثقف وغشيم في الكار معا ، وقد بدا اعتدادي بأنني موظف قد الدنيا في غشوميتي في بحثي عن سكن . أبى لي السلك الدبلوماسي والقنصلي الا أن أبحث عن شقة مفروشة في عمارة حديثة مبنية بالأسمنت المسلح على طراز « نوفى شنتو » (١٩٠٠) في أحدث أحياء روما ، كان من قبل أرضا خلوية في أطراف المدينة ، مثل أرض مدينة نصر في القاهرة مثلا . وقيل لي في وصف هذه الشقة انها لوكس لا لشيء الا لأن بها حماما وتدفئة مركزية بأنابيب المياه ، ولأن الأثاث من طراز « نوفى شنتو » أيضا ، خطوط وزوايا قائمة وأرجل كل منضدة مفرشحة مودرن جدا .

وتحملت فى سبيل الأبهة ما لهذه العمارة الحديثة من مقدرة فائقة على توصيل الصوت ، كنت أسكن فى الدور الثالث فاذا لعب طفل بالبلى على سطح العمارة ــ وهى من عشرة أدوار ــ سمعت خبطة البلية فى البلية ترن فى أذنى . وكنت أعجب كيف يمكن أن تقال فى هذه العمارة كلمة وتبقى سرا .

ولم أدرك فقر ثقافتى واحساسى الفنى الا بعد أن خالطت قرنائى الانجليز والألمان والأمريكان . وجدتهم جميعا يصدون عن الأحياء الحديثة ولا يبحثون لهم عن سكن الا فى الأحياء التاريخية القديمة ، وسط الأزقة الضيقة ، والدخول الى الدار من تحت بوابات عتيقة ، ليس فى البيت مصعد لأنه من دورين وعلو درجة السلم نصف متر ، وبير السلم ظلام كالكحل ، واذا دخلت الردهة لم تجد الا مدفئة مفتوحة ليشعل بها حطب فروع الشجر الغليظة . وأمام المدفئة ــ عن يمين ويسار ــ كرسيان عتيقان . هذا كل الأثاث . على رف المدفئة بعض خزف الأوترسك . وعلى الجدار لوحة من القرن الخامس عشر (هكذا يقال) . هذه هى روما التى يحبونها . وروما مصدر ثقافتهم ، فليس الا فى مثل هذه الدور ترتاح نفوسهم . أما الأحياء الحديثة فيتركونها للغشم أمثالى .

صاحب هذه الشقة بارون أو مركيز ايطالى مفلس ، فى اصبع يده خاتم ثمين موروث عن كاردينال ، والشقة والخاتم واللقب حجارة ودع تفرش على الأرض بأمل اصطياد عروس غنية من بلاد الدولار •

(« المساء » ، ١٩٦٤/٢/٢٤ ، ص ٨)

الزهـــرة والاصيص ..

كنت لا أعود الى الوطن أثناء عملى بالسلك الدبلوماسى الا فى اجازة قصيرة مرة كل سنتين أو ثـــلاث ، فكان أول شيء أفعله بعد أن أنفض غبار السفر ، وقبل أن أزور اخوتى ، أن أذهب الى بيتها فى الحلمية الجديدة ، أن أحج اليها ، لأجلس بين يديها فى الصـــالون المريح المكنون الذى لم يتبدل فيه شيء مدى أربعين عاما . المقاعد هى هى فى أماكنها هى هى . فترات الصمت بيننا أطول من فترات الكلام ، وبارك لنا فى هـــذا الصمت أن زوجها لا يشارك فى الحـــديث الا بابتسامة تجمع بين أذنيـــه ، تشق وجهه الوردى المستدير فى رأسه المكور الفاحم الشعر .

لست بالغريب عن الدار حتى تفسد عليه زيارتى بحجحته فى جلبابه السكروتة المهفهف . هو ابن ذوات من حى ســـيدنا الحسين وان كان يتقن الفرنسية كأحد أبنائها .. ثم أقدم لها زجاجة العطر الذى تحبه فلا تشكرنى بكلمـــة ، فلا يزال من حق الست الستوتة أن تتقبل هدايا عيالها كأنها قربان ، ولكن

نظرتينا ــ وهما تبتسمان كتما ــ تتقابلان خطفا ، فاذا المخطوف هو عمرى كله منذ طفولتى . من نظرتها يقطر الحنو والاعتزاز ، وأعلم أن نظرتى تتمتم بالود والاعزاز . هى المعطية وأنا المتلقى . وتصمت على حين أن زوجها يقلب الزجاجة كأنها من العجائب التى لم يرها من قبل ولا تفوته مع ذلك كلمة أو اشارة رمزية فى حديثنا المتقطع .

وعدت آخر مرة بعد غيبة طالت ست سنوات ، وذهبت اليها ثم خرجت ــ وزوجها يصحبنى عبر الحديقة الصغيرة حتى الباب ــ وأنا حزين منكسر القلب .

هذه الطفلة الشقراء ــ أم الضفيرتين ، النظيفة الملبس .. جورب للركبة أبيض ناصع ، وحذاء قصير أسود لامع ، تجللها « الستوتية » من قمة رأسها الى أخمص قدميها . ان تكن واحدة منا نحن أطفال الحى الذين يلعبون فى الشارع أمام البيوت فانها أصبحت منذ أول يوم لها معنا ــ دون أن ترشح نفسها أو يجرى انتخاب ــ ست الستات عند الشلة . ربما كانت أصغر منا سنا ، لكنها كانت لنا جميعا أختنا الكبرى ، بل اعزازنا لها يفوق اعزازنا لأخواتنا الشقيقات .. أكبر سعادة لنا أن تقنع بالجلوس على دكة البواب وتراقب هى لعبنا . لا طعم للذة والغلبة الا على مرأى منها . وهى « الأم » فى « الاستغماية » . عندها نودع ما كسبناه من البلى الملون والرصاص اذا ضاقت

به جيوبنا • هى التى تقرر اذا كان الجون « محسوبا أو غير محسوب » •

لا بأس عندنا أن تقوم أحيانا لتشـارك فى نط الحبـل ، بمفردها أو بين اثنتين تتوليان ترقيصها ، لتسحرنا برشاقتهـا الهوانمى ، أو لعبة « الرشتة » فلا يكون بين الأخريات من هى أبرع منها وأخف قفزا على قدم واحـدة أو احكاما فى زحزحة الطوبة من خانة الى خانة ، فاذا استراحت فى « الخانة الرابعة » وضعت يديها فى وسطها « وشنت » دون أن تستعين بمنديلها ، وهذا هو عيبها الوحيد ، فارتعشت أرنبة أنفها ، اذ كان لها أنف دقيقة شماء مجذوبة المنخرين الى أعلا قليلا •

تشارك فى اللعب تنازلا منها ، كأنما لكى ترى بقية البنات كيف يكون نط الحبـل وأصـول الرشتة • قد نتعـارك نحن الأطفال فيما بيننا ، ونشد بعض البنات من الشعر أو نوقعهن أرضا أو نزغدهن ونزعق فى وجوههن ، لكن هيهات لأحد منا أن يلمس ست البنات باصبعه أو يرفع فى مخاطبتها صـوته • كانت تمثل كل ما فى قلوبنا الصغيرة من حماسة غامضة وتلهف مبهم للدفاع عن حرم مقدس جميل لا ندرى ما هو •

ثم قبيل الغروب يطلع علينا بائع الجيلاتى التركى القزم ، عم سوسو ، ينفخ فى بوق صغير ، فنتحلق حوله ، ويشترى كل

منا قمعا ، ثم تتفرق وندخل بيوتنا .. نفخ هـذا البوق لا يزال يرن فى أذنى الى اليوم بعد أن جاوزت الستين .

ودخلنا المدارس الثانوية ، هنا وهناك ، ولبسنا البنطلون الطويل ، وانقطع اللعب أمام البيوت ، واحتجبت ست البنات عنا . ولكن جميع الأسر فى هذا الشارع تتعارف وتتزاور ومعهـا الأولاد وان كبروا ، فكنا نحس أن الشلة لم تنفض ، وأن ست الستات ، واسطة العقد ، هنـاك وراء هذه النافذة فى هـذا البيت . فاق طولها طولنا . فتاة حلوة فى ميعة الصبا ، من حقها اللهو والعفرتة ولكن الستوتية ظلت تجللها من قمة رأسها الى أخمص قدميها .

وكبرنا ، وأصبح فينا المحامى والطبيب والملحق الدبلوماسى، وتزوج بعض أولاد الحى من بعض بنات الحى ، ولكن أحدا منا لم يتقدم لخطبة ست الستات . قد تقول : هذا منطق غير معقول ولا مبرر ونتيجة غير متوقعة ، ولكن ثق أن هذا هو الذى حدث . أنا لا أعرف السبب فتفلسف أنت كما تريد . قل انهـا كانت لاتزال فى نظرنا هى أبدا شيئا مقدسا أبعد من منالنا . قل اننا كنا نخلط فى ذلك الوقت بين الجنس والتلوث ، أو على الأقل بين الجنس والامتهان ، وكان لها فى قلوبنا اعزاز وتوقير لا حد لهما .

وعلمنا ذات يوم أنها تزوجت من شاب ابن ذوات من حى

الحسين • لقد أحسسنا حينئذ وحسب بمقدار خسارتنا وحماقتنا• قلوبنا توجعت بأنين خافت ، ثم محونا ذلك كله بافتعال اشتياق لرؤية الزوج ، فوجدناه شابا بدينا ، له رأس مكور ، ووجه مستدير وردى ، شعره كث قصير أسود كالفحم ، لا يحب الكلام ، بل يشارك فى الحديث بابتسامة تجمع أذنيه وتشق وجهه • أحسسنا أنه انسان ابن أصل ، طيب القلب جدا ، وأنه سيكون لست الستات نعم التابع المطيع فاسترحنا ، لأن شخصيته لن تطغى على شخصيتها •

وكان زواجها بمثابة عودة بعد انقطاع طويل لنفخ بوق بائع الجيلاتى التركى القزم • فكما كانت عربته تجمعنا حولها ، أصبح بيتها يجمع الشلة بعد تفرقها • بحثت عنا واحدا واحدا ودعتنا الى بيتها ، وفتحت لنا صالونها • عندها تنفض المنازعات وتصفو القلوب • التأمت الشلة فى هذا الصالون الذى لم يتبدل فيه شيء مدى خمسين عاما • لم يتغير أيضا دارها ، ولكن زياراتى المتقطعة — ربما — هى التى جعلتنى أقدر الجميع على ملاحظة هبوطها سلم الحياة درجة درجة •

بعد زمن هو فى الحساب طويل ، وهو عندى كغمضة عين ، كيف يارب أصبحت ست الستات الحلوة الفتية هذه المرأة المحطمة • لا أظن أن السبب هو سلسلة الأمراض التى مرت

بها • فى قلبى شك أن زوجها ابن الذوات لم يفلح الا فى تبديد ما كانت تملكه ، بكسله لا بعدوانه •

فى آخر زيارة لى دخلت على فى ثوب ذى كمين طويلين وصف أزرار من أمام ، تتوكأ على ذراع زوجهـا وهى ترمقه بحنان وتشكره بريق حلو • أحيانا تتوكأ الدادة العجوز على الطفل ، هكذا رأيتها • جلست على المقعد بصعوبة ، وتناولت الزجاجة منى بيد مرتعشة • تتـكلم قليلا ثم تلهث • الشـعر الكستنائى أصبح نحيلا ، خالطه المشيب • سألتنى عن بقيـة الشلة واحدا واحدا ، فأدركت أن زيارتهم لها قد قلت ، الدنيا تلاهى • وانسرقت نظرة منى الى زوجها ، فاذا هو لايزال شابا بدينا ، وجه مستدير وردى ، ورأس مكور ، وابتسامة تجمع أذنية وتشق وجهه • لم تبيض فى رأسـه شعرة واحدة •

ولمـا خرجت للشارع أدركت أيضا ـ وربما لأول مرة ـ أن حى الحلمية الجديدة قد تبدل وجها بوجه وأقواما بأقوام • أحسست أننى انتهيت من تقليب ألبوم حتى وصلت الى ورقته الأخيرة ، فقفلت غلافه السميك •• مشيت وأنا أصيخ السمع أنتظر أن يأتينى ولو من بعيد صوت نفخ بوق صغير اذ كانت الشمس قد آذنت بمغيب •

(« التعاون » ، العدد ١٨٥ ، ١٩٦٦/٩/٤ ، ص ٨)

اعترافات .. ومضايقات .

لا أجهل أن كل افضاء بأسرار النفس لا يبرأ من ضعف وسخف واشتهاء ذليل لصب الهموم على رأس المستمع ، ولا يسلم من رغبة مريضة فى لفت الأنظار ولو بالتعرى ، وطلب تبرير النقيصة الى استجداء الثناء عليها ، باعتبارها مظهرا لارادة مستقلة تأبى التقيد بسلاسل قافلة الأسرى الطائعين . ومع ذلك ألحت على نفسى اليوم — وهى كعهدها أمارة بالسوء — أن أحدثك عن بعض أسرارى ، فلم أقو على مقاومتها — شأنى معها دائما — ولعلك لا تعلم أن نشأت فى عصر كان يحب الاعترافات ، ومن أوائل الكتب التى قرأتها فى صباى بالانجليزية « اعترافات آكل أفيون » ، وبالعربية «اعترافات عربجى حنطور» و « اعترافات مومس » .. الخ .. الخ .. ولا أدرى تعليلا لاختفاء هذا اللون من الكتب فى الوقت الحاضر . وربما كانت القصة هى التى قتلته ، أو لعله لقى مصرعه على يد باب « اسألونى » فى الصحف والمجلات . وانى آتمنى أن أبعث هذا

اللون من قبره وأضع كتابا بعنوان « اعترافات قصصى » ، يكون هذا المقال أول فصوله .

***

لا أزعم لنفسى قــدرة على التنبؤ ، ولو تخيلت ثم خلت لكانت قراءة نشرة الأرصاد الجوية شافية لى وحدها من حماقتى ، فلم يكن اذن التنبؤ فى مطلع حيــاتى بما يحدث لى الآن فى شيخوختى هو ســبب احجامى حينئذ عن نشر أوائــل قصصى الا بأسماء مستعارة ، وعمدت زيادة فى التضليل الى سرعة التنقل بين رموز مختلفة لا رابطــة بينها ، فكتبت مرة باسم « لبيب » وهو اسم لصديق أحبه ، وتلميح من بعيد بأننى ــ يا للغرور ــ أفهم بالاشارة ، ومرة بامضاء « قصير » مبالغة فى السخرية بنفسى وان أضمرت أملا فى أن يفسرها بعض القراء بأنها تجديد لذكرى « قصير » داهية العرب الذى قال فى قصة الزباء : « لو كان يطاع لقصير أمر » فذهبت مثلا ، ومرة بامضاء « عبد الرحمن ابن حســن » حين كنت أهيم بالجبرتى ، ومرة بامضــاء « عابر سبيل » ، فقد كانت هذه صفتى فى الحياة حينئذ ، وربما الآن أيضا ، واكتفيت مرارا بالحرف الأول من اسمى ، ثم كنت أشتط فى ارهاق أصفار المطبعة فأتبع حرف الياء بسطر يكاد يكون كاملا من نقط متتالية ، كأنى أعوض ما فاتنى فى الطول ، ومرة باسم « أبو نهى » وهو كنيتى بعد أن رزقت بالولد . وآخر هذا العبث كان امضاء « شاكر فضل الله » وهى الحكمــة التى

تكتب وغيرها من أمثالها على المقاعد العربية المطعمة بالصدف ، والتى تقول بخط جميل « القناعة كنز لا يفنى » ، وكان هـذا مقعدى المفضل فى بيت صديق بدأت أخالطه ، وان لم أنعم فوقه براحة وبقيت ساقاى مدلدلتين أمامه ، ولكنى كنت أجد شيئا من البركة حين تتمسح كفاى حتى تتضمخا بعطر هذه الحكمة .

فعلت هذا لأنى كنت أؤمن فى تلك العهود كلها أن الكاتب يكفيه أن يقحم رأيه على قرائه ، فينبغى أن يتورع بعدئذ من أن يقحم عليهم نفسه فوق البيعة ، أو قل لعلى توهمت أن وراء التستر حرية تتيح لى أن أخوض كما أشاء فى سيرة أصدقائى ، أو أنبش عش زنابير دون أن يسيح دمى . سمها ان شئت ــ كما أزعم ــ تواضعا وحكمة ، وسمها ــ ان شئت ــ جبنا وقلة وثوق بالنفس ، ولكن الحقيقة أيضا أننى كنت أتشهى تذوق لذة عجيبة ، أن أكون فى مجتمع من الناس ، آمل أن يكون بينهم واحد ــ واحد وحيد على الأقل ــ قد قرأ ما كتبت ، فيثير الحـديث حوله ومن لا يعلمون أننى أنا المجرم أو البطل فيفتحون باب قلوبهم على مصراعيه ، وأستمع الى رأى صريح بلا مجاملة ، فان كان مدحا أرضانى مرتين ، وان كان ذما جعلت أذنا من طين وأذنا من عجين وكفى الله المؤمنين القتال .

والغريب أننى رغم طول تلهفى على نوال هـذه اللذة لم أظفر بها مرة واحدة . الظاهر أننى كنت أخالط أناسا لا يقرأون ،

أو يقرأون كل شيء الا ما أكتب ، أو أننى كنت أكتب فى صحف ومجلات بلغ من عار بوارها أن أصبحت سرية .

وقد ضقت مرة بطول خيبتى واخفاقى فزل لسانى فى مجتمع ذات يوم وسألت الحاضرين وسط الحديث عرضا ، وأنا أتصنع التعابط : « هل قرأتم مقالا بامضاء كذا فى صحيفة كذا ؟ » ، وكان هو آخر مقال لى . وكنت أظن أننى أحسنت المكر ، فاذا بى أجدهم ـــ لشدة دهشتى ـــ قد أدركوا على الفور أننى كاتب هذا المقال .

الظاهر أننى لا أحسن الكذب ، أو لعل المثل القائل « من كانت على رأسه بطحة يحسس عليها » هو الذى هداهم الى السر . وكان من سوء حظى أن ذلك المقال هو أسخف ما كتبت ، فانهالوا على توبيخا وتقريعا ، فتبت من ذلك اليوم عن العودة لمثل هذه الحماقة وألجمت لسانى وضاعت على الى الأبد هذه اللذة التى جريت وراءها طويلا .

والغالب أنى تعبت من هذا التستر ، أو قل مللته لطول صحبته ، وربما اشتقت للشعور حين تقدم بى العمر أن تمضى سيرتى كلها ملخصة فى ثلاث كلمات « صرخة فى واد » ، فكشفت عن نفسى فاذا بى على غير ما أنتظر أقع فى متاعب عجيبة لا قبل لى بها ، بحيث أصبحت أترحم على أيام أسمائى المستعارة ، فقد كنت بها أكثر سعادة .

***

أول المتاعب هذه الحيرة الشديدة ازاء ملاحقة الناس لى ــ أصدقاء وغرباء ــ بآراء شديدة التناقض . يقول لى واحد عن قصة أنشرها : « اياك أن تعدل عن هــذا اللون ، شىء بديع وحاجة عظيمة » .. فأشك فى ذكائه قليلا . وهذا آخر يقول لى عنها : « لم أفهم كلمة واحدة . ماذا تريد أن تقول ؟ ينبغى أن تعدل عن هــذا اللون الى غيره ، وتكتب كبقيــة زملائك الناجحين عن الحب والمراهقات ، هذه هى بضاعة اليوم » .

وأظل بعد ذلك أياما تسمع أذنى اليمنى وسوســة من اليسار تقول : « اعدل عن هذا اللون » ، وتسمع أذنى اليسرى وشوشة من اليمين تقول : « اياك أن تعدل عن هــذا اللون » ، فاذا أمســكت بالقلم تلجلجت طويلا ولا أفلح فى خط كلمــة واحدة الا اذا نسيت الاثنتين معا . ومع ذلك يظــل نقد ثانى الفارسين ينخر فى قلبى ، فأتعمد السهولة والبساطة على خلاف طبعى ، فاذا به هو الذى يكلمنى بالتليفون على الريق ويقول لى : « برضه مش فاهم » . أكاد أراه يطلع لى لسانه .

أما الفارس الأول فيكتمها فى قلبــه حتى يلقــانى ليقول ولو بعد مضى ستة شهور انها قصــة تؤذن بتدهورى وخيابتى .

ان ارضاء الناس جميعا من رابع المستحيلات ، يأتى قبل الغول والعنقاء والخل الوفى .

***

وأصبحت كذلك اذا كتبت قصة أجعلها وليدة الخيال وحده الا وخرج لى انسان (لأجمع بين الرجل والمرأة) يقول لى :

ــ ألا تستحى أن تصفنى بهذا الوصف القبيح ، وتشنع بى علنا ؟ خلق الله كلهم بين يديك فلماذا جاءت قرعتك على ؟ هل أنت قصصى أم جاسوس أم بطل عالمى فى الغيبة ؟

ثم يقاطعنى ويدير دعايته بتقبيح سيرتى والازراء بأدبى محذرا بقية الناس منى • حتى فكرت أن أعدل الى كتابة قصص تدور على ألسنة الحيوان تقليدا لكليلة ودمنة • وحتى لو فعلت هذا لما سلمت ــ فيما أظن ــ من انسان يعلن أنى قصدته حين وصفت الثور « شتربة » • سأكتب عن الأسود والفيلة والطواويس وحدها •

لكن الأدهى من ذلك كله أننى وجدت أغلب الناس الذين أعاشرهم عن مودة قديمة أو حديثة قد انقلبوا فجأة الى « متعهدى توريد مواضيع قصص بالمجان ولوجه الله » • هم كل واحد منهم اذا قابلنى أن يروى لى من الباب للطاق حكاية سخيفة ثم يضيف :

ــ ألا تصلح بذمتك موضوع قصة هائلة ؟ لماذا لا تكتبها ؟

طبعا هذا الصديق المتطوع يخفى العزم على التنديد بى اذا كتبت هذه القصة قائلا اننى سرقتها خلسة من حضرته .

هذا التطوع شائع بين كثير من الناس ، يظنون فى أنفسهم خفة الدم وهم ثقلاء جدا ، بل هم من الغرور بحيث يؤمنون أن كتابة القصة عبث لا يليق بكرامتهم فيخلعونه على الحمقى أمثالى مدا لهم فى غيهم السخيف .

تصور أننى أضطررت أخيرا أن أهرب من الحلاق الذى أتزين عنده منذ صغرى ، ومنذ أسمائى المستعارة ، رغم أننى أستريح لرقة لمسته وهو يلكز رأسى ليجعلنى أطأطىء البصلة لينكشف له قفاى عن آخره . أو لا يعلم أن ثورة أعصابى حينئذ تبلغ ذروتها ؟

أتدرى لماذا هربت ؟ لأنه بدأ أيضا يقترح على موضوعات لقصصى .

وجاء على زمن أصبحت فيه لا أقوى على دخول دارى اذا رجعت آخر الليل الا بعد أن أحك على بلاط السلم كل ما علق بجعبتى من هذه الحكايات كما يحك العائد من ليلة مطيرة حذاءه على الممسحة الليف أمام الباب . (على فكرة : لماذا اختفت هذه الممسحة فى أيامنا هذه ؟) .

***

والألعن من هــذا كله .. رجل لا أعرفه ، أقابله فى مكتب حكومى فى شغلة ، ويكون قد سمع باسمى ولا أدرى أين . فأراه يترك المسألة التى جئته من أجلها ويقبل على متعطفا ودودا وهو يقول : « أنا مبسوط يا أســتاذ من قصتك المسلسلة » . ولم أكتب عمرى قصة مسلسلة ، أو يقول انه معجب بكتــابى الأخير ، فاذ نكشته تبين لى أنه لم يقرأه .

وآخر الدواهى رجل قال لى أخيرا وهو يمدحنى بلا سبب ولا غنم :

ـ انك رجل تقدمى ، ولكن هل كتبت شيئا بعد « لمبــة الست نفيسة » ؟

يشير الى قصــة كتبتها منذ أكثر من عشرين عاما باســم « قنديل أم هاشم » .

خرجت من عنده وأنا أكاد ألطم الخدين .

(« المساء » ، ١٩٦١/١١/٦ ، ص ٨)

من ٣٧٫٥° الى ٤٠° ..!

بارك الله فيمن انتفع ونفع ، فأنا أحب لك أن تنتفع بتجربتى ، ولست أضمن لك مفعولها مائة فى المائة ، فالناس تختلف . اذا كنت مثلى من المصابين بهوس القراءة ، لا تستطيع أن ترفع بصرك عن كتاب ــ أى كتاب ــ الا اذا كنت ــ على سبيل الحصر ــ نائما أو سائرا أو منشغلا بتناول الطعام . أقول على سبيل « الحصر » لكى يسرى الحكم على أماكن قد تخجل من الاعتراف بأنك تقرأ فيها ، وعلى أوقات يتهمك فيها الأصدقاء بالجليطة وقلة الحياء ، لأنك تحدثهم وتقرأ فى آن واحد .

واذا كنت مثلى لا تفسر المرض الا بأنه فرصة بديعة تتيح لك أن تدلع نفسك وتتدلع على أهلك . تقول كل خمس دقائق اغلقوا النافذة اذا كانت مفتوحة ، أو افتحوا النافذة اذا كانت مغلقة . وتقول كل ساعة : اعملوا لى كوبا من الليمون . وتقول كل ساعتين : أين البودرة ؟ غيروالى الفانلة وملاية السرير ووش

المخدة . أين الكولونيا ؟ وتقول ساعة الغـداء : أين الدجاجة المسلوقة ؟ واذا حل العشاء هل اشتريتم التفاح ؟

وجع الدماغ فرصة بديعة للهرب من كل شيء يدعو الى وجع الدماغ . فما تطل مشكلة برأسها الا قلت : عن اذنكم أنا تعبت قليلا وأريد أن أستريح . نلت ما تريد دون لوم أو تقريع . جميع المطالب المـالية مؤجلة ، همها وقع على أكتاف غيرك .

اذا ضممت مثلى هوس القراءة ودلع المرض وسألتنى : ماذا أقرأ وأنا مريض ، أجبتك من واقع تجربتي هكذا :

من ٥ر٣٧° الى ٣٨°

ثق أن الصحف اليومية لن تسليك ، بل ستصيبك بارهاق شديد ، والبركة أيضـا فى الحروف الجديدة المكعبرة المتسنمة . كل مشاكل العالم ستبدو لك تافهة تتضاءل بجانب مرضـك الضئيل الذى تحب أن يتضخم فيتضخم . يخيل اليك آنك قرأت الكلام ذاته أكثر من مرة ، وستشعر ، لأنك تتنفس بضعف — هكذا تزعم — أن كتاب اليوميات يحزقون حزقا شديدا ، وأن عملهم عكس للمنطق . انهم يصبون فى المطبعة كستبانا من العصير فتخرج لك من الطرف الآخر مصاحبة لبشة قصب تعرش حولك وتلم عليك ذباب الأرض كله . ستجد الكلام مجرد شقشقة ،

وأن الخوف من الحرب حكاية قديمة قد باخت وشاخت وحقت احالتها على المعاش ، وأن لا ضير عليك من اغفال الاطلاع على آخر أخبار مؤتمر جنيف .. نم وقم ، وقم ونم كما تشاء ويشاء المرض حتى ولو امتد السنين الطوال ، فانك ستجده منعقدا عند شفائك . كم أتمنى أن أشتغل مندوبا فى مؤتمر جنيف ! أما البواب الذى قتل سيدته الفردانية فأنت تعرفه منذ كنت صبيا صغيرا .

ثم أنت يا أخى لست قارىء صحف فحسب ، بل أنت فى الأصل وفى الصميم قارىء كتاب — أى كتاب — لذلك أنصحك أن تنتهز الفرصة وتقرأ الروايات النهرية الطويلة التى لم تجد من قبل وسط مشاغلك وقتا لتجرعها . خذ ثلاثية نجيب محفوظ أو « الأرض » للشرقاوى ، أو « الساقية » للصاوى وكيل الوزارة ، أو « الرجل الذى فقد ظله » لغانم .

لست أريد أن أفاضل بينهم ، أو أن أدبج مقالا فى النقد ، ولكنى لو كتبت لك الروشتة لما ضمنتها الا الدواء الذى جربته أنا ونفعنى وقلت فيها : جرعة كبيرة من ثلاثية نجيب محفوظ على الريق وبين كل أكلة وأكلة — أحتفظ بزجاجة الدواء تحت المخدة ، فهى التى احتملتها وهى التى أسعدتنى ، بل انى أشكر المرض الذى أتاح لى قراءتها . انه كان من بين جميع أمراضى أخفها دما ، لأنه أقلها عداء للفن .

وجدت أكبر راحـة لأعصـابي وبدني وذهني في هـذا الأسلوب التقريري البديع الذي يدني جميـع السـماوات الى مستوى يدك حتى تستطيع أن تلمسها دون أي مجهود منك ودون أن تصاب روحك برجة عنيفة مزلزلة . حتى الدموع التي ذرفتها وأنا أصحب « الست أمينة » الى بيت أمها بعد طلاقها ، وأنا أسير مع « كمال » وراء نعش لا يعلم أنه يضـم حبيبة عمره .. هي دموع رقراقة تزول بمجرد أن أمسحها بطرف اصبعي من تحت جفني ، حزن مهذب جنتلمان يشجيك بكل أمان ولا يضر المعدة ولا القلب . الكلام كالمـاء الزلال سـهل بلا تعقيد ، لك أن تمزمز به ، أو تحتسيه على مهل ، أو تشربه وفمك يعب منه عبا .

سيزداد حمدك لسهولته اذا كنت قد قرأت قبل مرضك شيئا لبشر فارس .. والتفاصيل التي يعرضها « نجيب » هي الوسط المثالي بين « اللت والعجن » وبين « اللبيب بالاشارة يفهم » . أسـلوب له قدرة هائلة على أن يمشي مع كل انسان حسب خطوه . وعلى ذلك فلم يترك نجيب في نفسه حاجة لم يقلها ، بل جعل قصته كلها خطا متصـلا ليس فيه عقد ولا مطبات ولا محطات لا يمكن الوقوف قبل بلوغها .

لذلك كنت أقرأ الثلاثية وقت مرضي وأنا مستريح كل الراحة . أقرأ قدر طاقتي فاذا تعبت وقفت دون أن أحس بلهفة

علي ما فاتني . والعجيب أنني مع ذلك كنت أحس اذا عدت لها أنني كنت في شوق شـديد اليها ، لأنها تأخذني من جديد بين أحضانها بكل حنان ، هـذه هي براعة نجيب ومهـارة فنه المهذب . انه لا يهجم عليك بمخالب وأنيـاب ، بل ينفذ الى روحك نفاذ أبخرة الخمر ، لطيفا مترفقا مهذبا . انه يملكك دون أن تحس أنه يأسرك أيضا .

من أجل هـذا لم أنصحك أن تقرأ في هـذا النوع من المرض « اللص والكلاب » ، فانك لن تستطيع أن تلقيها من يدك الا اذا فرغت منها وشعرت أنك تجري وتلهث كالكلاب .

من ٣٨° الى ٣٨٫٥°

لا صبر لك على الأسلوب التقريري والمطولات ، أنت تريد كلاما كالملبس يحلى فمك دون أن يزحمه ، وتستطيع أن تمصه وتقرقشه لأنه صلب هش معا ، فأصلح شيء أنصحك به عن تجربة هو أن تقرأ ديوانا من الشعر الحديث ، فهو سـهل القراءة خفيف الدم . لا تشغلك القصـيدة ـــ وهي من عدة صفحات ـــ الا دقائق معدودة لأن كل سطر كلمة أو كلمة ونصف، شكلها شكل الاستمارة !

وستعينك خلخلة صواميل عقلك قليلا من أثر الحمى أن

ينفذ من خلالها اليك بعض معانيه العميقة التى يشق فهمها على الأصحاء ، وتكون مسارعتك الى الانبساط أضمن اذا كنت من أحباب صديقى الأستاذ اسماعيل النقيب ـ بدار « أخبار اليوم » ـ وأهداك نسخة من ديوانه غير المطبوع الذى جعله ترياقة بريئة خفيفة الدم على الأنواع الرديئة من هذا الشعر الحديث . من روائع ديوانه القصيدة التالية .

المعزة الحمراء

فى المزارع الخضراء
معزة حمراء
تمأمىء فى الفضاء
فى الوحدة الخرساء
ماء .. ماء
ونسيم يأتى من بعيد
حلو كالنشيد
مئذنة
وريح هب من المنزلة
وسمكة القرموط
فى بحر غويط

ووطـاويط
فى المحيـط
تقاطع الطريق ـ يا حبيبى !

من ٥ر٣٩° الى ٥ر٤٠°

دمك يغلى ، ألفاظك ذابت فوق النار فى عجينة واحدة ، وليس فى العجين روابط ولا تسلسل • كلامك أصبح خطرفة بليغة بدون معنى عند الأصحاء ، ولكنها عندك أفصح تعبير عن موضوعيتك •• كأن المحرومين من الكلام كلهم ـ أحياء وأمواتا ـ قد وجدوا فى فمك مخرجا لكبتهم ، فألقى كل واحد ما عنده القاء حجارة من كيس •

ومن وراء هـذا السيل المنهمر غير المفهوم نطق أخرس لرصيد من الآلام والأوجاع والأشواق والصبابة لم تصب قط من قبل فى ألفاظ ، فأنت فى هذه الحالة أصلح قارىء للأدب السيريالى ، أحدثك عن تجربة • ظلت معى مسرحية « فى انتظار عودة ربو » لصامويل بيكيت شهورا طويلة وأنا مصمم على قراءتها وحاشد كل جهدى لفهمها • وكما يفعلون بالجواد قبل السباق كنت أريح نفسى فى التنزه والترفيـه استعدادا للجلسة التى أتناول فيها المسرحية ، حتى لا أتهمها بأننى لا أفهمها لأننى

متعب أو كسول أو سارح الذهن • ومع ذلك قرأت صفحة أو صفحتين فلم أفهم شيئا • وعدت من جديد الى « الريجيم » القديم وتناولت المسرحية من جديد ، فاذا بها تزداد غموضا • المسألة لا تخرج عن واحد من اثنين : اما أن يكون المؤلف مخبولا أو أكون أنا المخبول •

فلما قرأتها وقد بلغت درجة الحمى بمستوى ٣٩٫٥ هالنى أننى فهمتها بسهولة ، بل وجدتها آية فى البلاغة والذكاء • هزتنى مأساتها الى درجة القهقهة التى تسيل الدموع ، وأنحت على نفسى باللائمة وأزريت بها لأنى لم أفهمها وأنا صحيح • كيف حدث ذلك • وأصبحت المسألة لا تخرج عن واحد من اثنين : اما أن يكون المؤلف وأنا من المخبولين أو يكون المؤلف وأنا من أحكم الحكماء وأعظم الفلاسفة • وطبعا فضلت الفرض الثانى •• لأنه كان واضحا كالشمس •

هذه هى مشكلة المدرسة السيريالية • ان عملها يعتمد على التمزيق ، وأدواتها هى الأشلاء ، ومنطقها هو الخطرفة ، لأنها نابعة رأسا من النفس الانسانية فى عز اتقادها وبغير زيف أو خداع • انها تبصق على كل القواميس وكتب النحو لأنها تعتقد أن ضمير الانسان قادر على الكلام بصوت أخرس ، لا لغة له ولا نحو ، ينفذ الى النفوس فيرجها رجا شديدا •

وكان من دلائل شفائى من مرضى الذى أقعدنى فى الفراش

هذه الأيام الأخيرة وحرارتى ٣٩٫٥° أننى استطعت آن أترجم لك منولوجا فى هـذه المسرحية ينطق به رجل هو رمز للانسان الأسير فى يد الظلم الاجتمـاعى ، الضائع فى الكون ، لا يفهم شيئا ، ولا ينقطع تشوفه للفهم . أترجمه لك لأننى حين قرأته فى درجـة ٣٩٫٥° كنت أقهقه من تريقته على كلام الفلاسـفة والفقهاء ، وباطن التريقة حزن شديد وألم ممض ، ومأسـاة الانسانية كلها :

قال « لاكى » ـ وهو خادم فى عنقه حبـل وله اسم من أسماء الكلاب : بفرض ما تنطق به المؤلفات العامة لكانى ومانى من وجود اله شخصى ـ احم احم احم ـ بلحية بيضاء ـ احم احم احم ـ خارج عن نطـاق زمن بلا مليانه ، وقداسة سليانه يحبنا حبا شديدا مع وجود استثناءات لأسباب مجهولة ، ولكن الزمن سيكشف عنها ، وهو مثل أمونه المؤلهة يتألم مع كل الذين أطيح بهم فى النار ، من نارها وسعيرها اذا طال بهما العمر . وهل فى ذلك شك سيحترق الكون بمعنى اندلاق الجحيم على السماء ، ما تزال زرقاء ساكنة كل السكون بسكون وان يكن منقطعا الا أنه أفضـل من لا شىء . مهلا مهلا ، ونظرا لمـا هو أكثر من ذلك تشهد المؤلفات التى لم تتم والتى خلفها شرم وبرم للأنثروبوبوبولوجيـا ، بأنه نبت بدون وتوجهـا المجلجلجلس الأعممل كل شـك الا الشك العالق بأعمال الانسان أنه نتيجة

للمؤلفات التى خلفها كانى ومانى دون اتمامها ولأسباب مجهولة من ينكره الكثير من أن الانسان عند شرم وبرم أن الانســان باختصار أن الانسان فى كلمة وجيزة بالرغم من تحسن الأكل والهضم يذوب شوقا وضياعا ثم يذوب شوقا وضياعا » .

للمونولوج بقية طويلة أؤكد لك أننى ترجمتها أيضــا ولكننى أعفيك منها الآن . على كل حال أقترح على « مسرح الجيب » أن يقدم هذه المسرحية فى الموسم القادم ، وينص فى الاعــلان : « ممنوع الدخــول الا لمن كانت درجــة حرارته ٤٠° » !

(« المساء » ، ١٩٦٢/٨/٢٧ ، ص ٨)

حماقــة ..

كان يوما لا أدرى بوجه من تصبحته ، فلم يخرج من يدى الا أن أقوم من ارتكاب حماقة سخيفة لأرتكب حماقة أشــد سخفا ، أول محــاولة للبحث عن تفسير معقول ــ والبحث فى الحقيقة هو عن تبرير واه جدا يمسح خجلى وينسينى جراحى ــ ان قلت لنفسى : لاشك أنك كنت فى ذلك اليوم الأغبر فريســة اعياء شديد . ركبك منذ أن استيقظت . والاعياء على الصبح ألعن من الاعياء آخر النهار . الاعيــاء يخرس صــوت العقل والحكمة ويفسد الاتزان .. وأكثر جرائم العصر ليس مرجعها الانفعال أو العنف ، بل الاعياء ، « فالغريب » فى قصة ألبير كامى لم يقتل لأنه كان منفعلا ثائرا ، بل لأنه كان مصابا باعيــاء ووحى أورثه زهقا شــديدا .. من الناس كلهم . من الحياة كلهــا .. لا وصف لجريمته الا بأنها كانت حماقة كبيرة . ولحسن الحظ كانت حماقاتى صغيرة ، لأننى لست بطلا ، لا فى الحيــاة ولا فى قصة ، والا لكنت قد قتلت أنــا أيضا ــ ربما ــ فى ذلك اليوم الأغبر .

ورغم الاعياء بقيت لى والحمد لله مسكة من العقل • فلم ينطل على هــذا التفسير ، هــذا التبرير ، وقبلت أن أواجه الحقيقة ، ولو كريهة •• أدركت أن مرد حماقاتى الصغيرة هو طبع أغالبه منذ أن وعيت لنفسى فلا أغلبه بضربة قاضية ، ان صرعته أحيانا صرعنى أحيانا •• وحين أدركت ذلك لم يكن ندمى على ما اقترفت بأقل من حسرتى بأن العمر الطويل الذى قطعته والتجــارب العديدة التى حصلتها له تقتلع هــذا الطبــع من جذوره ، وكانت جداتنا تقول : طبع الانسان لا يفارقه الا على ليفة المغسل •• أى عند باب القبر •

حاشا أن أزعم لنفسى فضيلة أتجمل بها وأزهو ، فأدعى أن مرد هــذا الطبع هو وثوق متأصل بلا برهان ورغم الدروس التى تدحضه بأن الناس كلهم مجبولون ــ مثلى ! ــ على ســماحة النفس •• على افتراض مبدأى احسن النية لا لسوء النية فى كلام الغير وتصرفاته • فلو كان هــذا هو الحــال لمــا عد ما ارتكبته حماقة •• الحقيقة الكريهة التى واجهتها ان مرد هذا الطبع هو تضعضع سخيف مستخذ وانهزام سريع أمام الميــل الى فتنــة الاعجاب بالنفس •• أى توهم قدرتها على الانفراد ــ فى زعمها ــ بالتحلى تلقائيا بميزة لا يبلغها الغير ــ ان بلغها ــ الا بمشقة ، بابتكار ما يعجز عنه الغير ، ولكن ــ صدقنى ــ أننى أتحــامل على نفسى ، كعادتى ، فلم أكن فى ذلك اليوم الأغبر الا ضحيــة

قلمى ، وهو منساق كالأعمى مع تصاريف اللغة ونزواتها ، فالذى ارتكب الحماقة هو لا أنا ، وكل كاتب يعلم : كما هنـاك زلة لسان ، هناك زلة قلم .

دعنى أروى لك ما حدث :

كنت أكتب مقالا أريده أن يتصف بالظرف لكى لا أثقل على القراء . وأعجبنى هذا الظرف فغفلت عن قلمى وهو منساق مع تدفق اللغة وايحاءاتها فاذا بالظرف ينقلب الى تظرف مفتعل. أقرع .. فجـاء قميئا باردا سمجا ، دمه كالبق ، وانساق قلمى بسبب هـذا التطرف المجوج فخرجت منه نكتة سخيفة جدا ، لا أدرى كيف رضى أن يكتبها أو أن يسكت عليها بعد أن كتبتها فلا يشطبها ولم أنتبه فوق ذلك الى قدرة هـذه النكتة السخيفة على اصابة الأبرياء .

ودهشت أبلغ الدهشة حين حدثنى صديق أعزه وقال لى ان عشرة أشخاص على الأقل حملوا اليه هـذا المقال وقالوا له وهم يضعون الأصـابع السبابة على النكتـة المكتوبة : انظر ، انه يقصـدك ، هذه هى حقيقته .. خذ حـذرك منه وان زعم أنه صـديقك .

وصديقى لحسن الحظ رجل كريم ابن ناس . فزجرهم وقال

لهم : لا شأن لكم بما بيني وبينه ، أنا أدرى به منكم •• كم كنت أتمنى أن أرى وجوههم حينئذ ، أظنها علتها حمرة الكسوف والخجل ؟ • هيهات ! • يارب •• لماذا يتطوع أناس بالوقيعة بين الناس •• يظنون أن هذه الوقيعة سلم يرقون به الى الفوز بصداقة من ورائها منفعة ، ولو كان كل الناس كصديقى •• هيهات •• لهووا من هذا السلم حقراء أدنياء فتندق على الأرض رؤوسهم الخاوية كالبطيخ الفاسد • ولكن رؤوسهم لا تزال سليمة كالزلط لأنهم وان كثروا ، فأمثال صديقى قليل •

الحماقة الأخرى التى ارتكبتها مردها أننى أفرطت فى الحماس — كما أفرطت من سابق فى التظرف — فوقعت هذه المرة فى التهور •• كان ذلك فى حديث عن رجل أجنبى رأيته يتولى عنا خدمة الخط العربى والعناية به ، أعترف بأننى مطبوع على التعصب والغيرة الشديدة فى كل ما يمس أمتى ، لا أرضى الا أن نقوم نحن بما هو واجب علينا ، لا نقعد فننتظر أن يتولاه الغير عنا ، استسلمت للانفعال والحماس ، وبالغت فى صب قوايم اللوم على هذا القعود منا ، من فرط التحمس وقعت فى التهور •• فأنكرت جهودا كثيرة بذلت عندنا ، غمطت حق أصحابها ، ظلما منى ، وكان ينبغى أن أثوب للرشد فأشيد

بفضلهم وأشكرهم .. وأظننا من الشعوب التى تهيم بتعذيب أنفسها بالنقد المرير والاستخفاف بكل ما تفعل .

أنصحك اذن ـ وان وثقت أن نصحى سيضيع هباء عندك ـ لا تفرط فى التظرف السمج ، وأن لا تفرط فى الحمـاس لئلا تقع فى التهور الأحمق .

(« التعاون » ، العدد ٣٨٥ ، ١٩٧٠/٧/٥ ، ص ١٠)

لقــاء الحيــاة ..

فى التحول من الصبا الى الشباب حين بدأت أستفيق للقاء الحياة ، وأتأمل فى وجوه الناس ، وأقول أين طبعك من طبائعهم، هذه المحــاولة للاندماج فى المجتمع تستحق أن توصف بأنهــا عصيبة ، لأنها تجرى فى سراديب النفس وسط أسرار ووراثات مجهولة ، وغالبا بلا وعى بها ، وبدون ارشاد من أحد وبلا سند من التجربة ، ومع ذلك فسيطغى أثر هــذه الفترة القصيرة العابرة على بقية العمر كله . من ذلك اللقاء تخلف فى ذاكرتى احساس أمض قلبى حينئذ بأن الناس ينقسمون الى ثلاثة أنماط .

نمط تتمثل له الحياة فى صــورة قنيصة ممتنعة ماكرة ، لا تؤخذ مواجهة دون رضى منها واستسلام ولا تؤخذ غلابا ، وفى وضح النهار ، بعد قياس قوة القانص بقوتها فى معركة شريفة تستنكر الغدر . وانما تؤخذ بالالتفاف من ورائهــا ، بالحيلة والمؤامرة . ليس هــذا فحسب ، بل يحس هــذا النمط أيضا أنه يسلب هذه القنيصة لنفسه من يد الغير ، لو فتشت صــدره

لوجدت فيه ضمير اللص • ليست المعركة بقياس القوى ـ ثنائية بين القانص والقنيصة ، بل ثلاثية بقياس المكر ـ بين مكر القانص ، ومكر القنيصة ومكر بقية الناس •

يوصف هذا النمط بأنه حويط ، ماء من تحت تبن ، أزرق الناب • ورأس الفضائل عنده فى الصمت والتكتم والمداراة ، والشك والريبة والحذر • كلامك اليه مهما كان بريئا وجاء عفوا من غير سابق تدبر ، حتى فى أتفه الأمور ، تتلقاه أذن له تبدى الذكاء ـ بمعناه اللغوى ، وتتلقاه الأذن الأخرى ـ وهى تبدى البلاهة ـ بالفحص والامتحان والتقليب على الجنبين لتعرف ما تحته وما وراءه ، لأنه مؤمن أن كل الناس مثله •

تستطيع أن تقول ان هذا النمط مصاب بحول لا فى عينيه بل فى أذنيه • باب بيته لا يفتح مباشرة على الحوش المكشوف ، بل على ممر مسقوف طويل يتعرج ذات اليمين أو ذات اليسار قبل الوصول • وغلق النافذة ألذ على يده من فتحها •

ليس هذا حاله مع الدنيا فحسب ، بل مع الآخرة أيضا ، فقد أحسست أن الجنة عنده هى أيضا قنيصة تؤخذ بالمكر والحيلة ، الشريعة نصوص للظواهر لا نبراس للقلوب ، والتدين مغامرة مضمونة : ان صدق الوعد فقد كسب وخسر غيره ، واذا لم يصدق فلن يخسر شيئا ، سيكون مثله مثل بقية الناس •• لن يكسب أحد شيئا دونه •

والنمط الثانى عنده أن الحياة هى عملية نصب كبيرة . انها مسرحية عالمية : وراء الستار تيه بلا حدود أو معالم ، ليس به ساعة تدق ، وفيه حشد من المخاليق الغلابة ، كلهم سـواء فى المنشأ والمصير . وأمام الستار حيز محدود مكانا وزمانا .. هذا يقوم بدور الملك ، وهـذا بدور الخادم . هذا هو الضاحك وهذا هو الباكى ، أبطال وكومبارس . ولكن كل هـذا لعب فى لعب ونصب فى نصب ، وعما قليل سيسدل الستار ويبتلع التيه كل الممثلين ، فاذا هم من جديد جملة من المخاليق الغلابة ، كلهم سـواء فى المنشأ والمصير . ولا يكفى هذا اللعب كله ، بل المسرحيـة ذاتها غير مفهومة لا معنى ولا فرضا ، ومع ذلك لا ينقطع تمثيلها ليلة بعد أخرى ، وتقابل بالتصفيق والصفير معا .

وهذا النمط لا يعيش الحيـاة ، بل « يمثل » أنه يعيش الحياة . انه نمط مأساوى . فى القلب ضـياع ، وعلى الشفاه ابتسامة الاستخفاف . هـذا النمط هو عـادة ظريف ، خفيف الدم ، بحبوح ، مستهتر ، فضفاض ، متلاف سكير ، يكربه عنف الدهاء ، بل فرط الذكاء . المحنة عنده هى الفصل الأخير فى المسرحية ، مؤجل تمثيله لمـا بعد ، لا داعى لأن يشغل به نفسه الآن . ولكنك اذا فاجأته بسؤالك : من أنت وماذا تفعل ؟ لحـار ولم يستطع أن يجيبك .

والنمط الثالث عنده أن الحياة حيوان ضخم ، وأنه هو

وليدها ، حيوان مثلها ، هي أكل وشرب وتناسل ، كل متعة أخرى اذا لم ترتد الى لذة حسية فهي هراء . قد يكون من خريجي أكبر المعاهد ولكن لغته ستظل دائما هي لغة الحواس ، والجنة عنده دوام نسيانه بين لذائذ الدنيا الحسية .

تبينت هذه الأنماط فانقبض قلبي . أحسست أنها تخدعني عن الحياة . كنت واثقا أن الحياة في حد ذاتها متعة ليس كمثلها متعة . ولكن يهدرها ويفسدها ويثلم شرفهـا أن تؤخذ بالحيلة والمكر والمؤامرة ــ كالنمط الأول ــ أو بالنصب وتمثيل دور من الأدوار دون أن أعيشه كالنمط الثاني ، أو أن أعيشها معيشة الحيوان ــ كالنمط الثالث .

ان أردت تعلم هذه المتعة فينبغي لي أن أتبين أنهـا أكبر نعم الله سبحانه علي ، وأن ألقاها رافع الرأس وجها لوجه ، لقاء حبيب بحبيب ، وتمنيت أن لو أصبح شاعرا يتغنى بالحياة . وما ألذ أحلام الشباب .

(« التعاون » ، العدد ١٧٤ ، ١٩٦٦/٦/١٩ ، ص ٨)

مجرد ظهــور ..

كم عمر التليفزيون ؟ لم ينفع مر الزمن الطويل ولا الالف والعادة فى تهدئة عنف هــذه الهجمة ، انها لا تزال تتكرر معى بنفس الشدة وصدق الوفــاء لم أظهر فى التليفزيون مرة الا كان حتما أن أقع من غد ــ وربما على الريق ــ فى هــذه التجربة القاسية ، يلمحنى فى الطريق أحد معارفى القريبين أو المتطوحين فيهجم على ، وقد ينتقل جريا من رصيف الى رصيف معرضــا نفسه للدهس ويوقظنى من سرحانى ويشد على يدى ووجهــه متهلل بالبشر والفرح كأنه يحمل الى أجمل تهنئة على فوز عظيم :

ــ رأيتك أمس فى التليفزيون ..

يتملكنى حينئذ شعور غريب ، كما تتملك الأرض فى تلك اللحظة قدمى المسمرتين ، نصفه تبليم ، لاشــك أن فمى أصبح نصف مفتوح انفك رباط شفتى السفلى ، اندلق دلو من البلاهة على وجهى ، لسانى يحــاول أن يعثر على كلمة غير بائخــة فلا يفلح ، لا أدرى ماذا أقول له ؟ هل أقول متشكر ! أشــكره

على ماذا ؟ من الغرور أن أشكره لأن عينه تكحلت برؤية طلعتى البهية ، ثم ــ يا أخى ــ لكن من الذى ينبغى عليه أن يشكر الآخر ، أنا أم هو ؟ ها أنذا أهرب من الغرور فأقع فيه بلا وخز من الضمير ، وكل مغرور يزعم أن ليس فى العالم رجل حقـانى مثله ، أم أقول له : طيب يا سـيدى ، وماذا جرى فى الدنيـا أو للدنيـا ؟ فأجابهه بتقريع مهما تستر بالأدب أو المزاح فانى أكرهه لنفسى ، لست قواما على الناس حتى أوزع عليهم التقريع بالعدل والقسطاس ، وأشـد الناس ارهاقا للأعصاب هم الحنابلة القوامون على الناس . انى أحب المثل البلدى القائل « واحد شايل دقنه ، وانت تعبان ليه ؟ » وان كنت لا أدرى معنى كلمـة شايل هنا ؟ أهى محلوقة هـذه الذقن ، أم مرفوعة فى الهواء من الكبر والخيلاء ؟

ونصفه احساس بالحسرة ، أظل أتطلع الى وجهه وأحملق فى عينيه مستجديا عبـارة تثلج صـدرى بضيفها على هذا الخبر العظيم ، خبر رؤيته لى فى التليفزيون ، أستجدى منه أن يقول لى : وكان كلامك حلوا وأفكارك رائقة ، أو حتى أن يقول : وافقتك على رأى وخالفتك فى رأى ، أو حتى ــ والله العظيم ــ أن يقول : كان كلامك زفتـا وآراؤك قطرانا ، فأنا لم أذهب للتليفزيون وأنا مصاب بالخرس ، لا لشىء الا لأن تظهر للناس طلعتى البهية ولا أنبس بحرف ، بل ذهبت لأتكلم ، لأقول شيئا

نافعا فى ظنى ، أملا أن يكون كذلك فى حكم النـاس ، الناس العقلاء طبعا ! الذين يفهمونها وهى طائرة .

نظرتى المستجديـة منه ولو قرشـا لا تظفـر منه حتى ولا بمليم ، أتنازل عن آمالى الكبار وأستجدى منه ما هو دونها بكثير ، ما دام أن فرحته برؤية طلعتى البهية قد جبت عنده كل مقدرة على السمع ، ولا أقول على الفهم ، فلا أقل من أن يقول لى : وكان وجهك مشرقا كالبدر ، أو حتى : لحظت انك كنت متجهما مقطب الأسارير فلماذا ؟ أو حتى ـ والله العظيم ـ كنت كالأعمش فى غمرة الضوء ! لازلت أحفظ له انسانيته فلا أتوقع منه أن يهبط الى الدرك الأسـفل من الحماقة فيكلمنى عن أناقة بذلتى وشياكة رباط عنقى ، أو اختـلاف العصا التى أحملهـا معى كل مرة من جلسة الى جلسة ، ثم يخامرنى الشك فى هـذه الانسانية حين أتهرب من فهم نظرته وأنا أهرب منه ، انها تكاد تنطق بلمحات من جوع مرير أو مرارة جائعة ، هـذا هو سر لمعانها ، كأنه يغبطنى على فوز نلته ولم ينله هو بعد..هذا الفوز العظيم هو الظهور فى التليفزيون .. مجرد الظهور ؟

هل ظلمته ؟ ربما انتقل اليه الهوس بالعدوى البصرية .. فهو معـذور ، فلعل أغلب الذين يظهرون فى التليفزيون تترنح أعطـافهم بفرحة الظهور فى التليفزيون ، مجرد الظهور ، بذلة التليفزيون هى بذلة الأعيـاد ، السوداء المخططـة أو الكحلى المنمشة ، ورباط الرقبـة تم شراؤه فى اليوم ذاته ، والحذاء

لميع ، والجلسة بحساب واللفتة بتقدير ، والتخشب على أتمـه ، حتى الأطفـال فى برنامج « ماما سميحة » يتزاحمون بالمناكب ليتحقق لهم الفوز العظيم .. الظهـور في التليفزيون مجـرد الظهور .

بل قد قبل بعض من أكبرهم وأجلهم أن تستذلهم خيلاؤهم قبل الجلوس أمام العدسـة فى برنامج أدبى فى العلالى يعنى عن سارتر أو بيكيت مثلا ، فالى اليوم لا أزال أذكر شهقتى حينما قابلت صديقى هـذا ذات مساء فى دهاليز التلبفزيون ، فقد خيل الى أنه أصيب فجـأة بارتفاع مخيف فى ضغط الدم ، أو أن مرضا جلديا عجيبا قد طفح على وجهه فأصبح لونه لا هو أصفر ولا هو أحمر ولا هو أبيض بل بين بين ، لعل أصـدق تشخيص أنه أصيب لتوه بفقر شديد فى الدم ، فحول عينيه هالات سود ، وأنا لا أعرفه يكحل جفنيـه .. هجمت عليـه أقول له : مالك سلامتك ، دعنى اصحبك الى البيت .. فاذا به يبتسم لى ويقول:

ــ قيل لى أن المكياج ضرورى لأجل أن تكون صورتى طبيعية ..

فقلت له وأنا اكتم خيبة أملى : طبعا ، طبعا !!

(« التعاون » ، العدد ١٣٩ ، ١٩٦٥/١٠/١٧ ، ص ٨)

المهنـــة ..

حكم كثيرة موروثة ، عملة متداولة ، ولكنها عند تجربتها تتبين أنها من قبيل (الماركة) التى يصطنعهـا صاحب القهوة لمحاسبة الجارسون دفعة واحدة ـ لا بالقطاعى ـ بعد التشطيب، (ماركة) مستديرة تنوب مناب قيمة كوب من الشاى (وماركه)، مضلعة تنوب مناب قيمة شيشة حمى لا يريد صاحب القهوة أن يخوت دماغة ويجد الفكة كلما مر الجارسون آمامه حاملا طلب الزبون ، من السياسة والراحة تأجيل ساعة الحساب . ساعة يتبين المكسب من الخسارة ، ما أحلى التعامل بالوهم ! .. ولكنك اذا ذهبت بهذه (الماركة) الى السوق ونزلت الى معتركه الفعلى الرهيب لمـا وجدت بائعـا يقبلها منك ، أو حتى صرافا يفكها لك ، ليفك زنقتك .. حكم كثيرة هـذه حالها ، صالحة طالمـا بقيت خارج الســوق ، باطلة ، فالصو .. داخلة ــ رغم بريقها ــ ربما بسبب بريقهـا .. دلالة على أن تداولها كان بغـير دعك وامتحان ، كل ما أريد لها من صنعها هو فض مجالس ، أو اغلاق فم ثرثار ، أو نفض اليدين من عناء الحســاب ، والتهرب من المواجهــة .

وقد تعلمت الاحتراس من هذه الحكم التى تشبه (ماركة) صاحب القهوة .. كالحكمة القائلة : « من فكر فى بلوى غيره هانت عليه بلواه » ، فهذه الحكمة تقفز الى ذهنى ويرددها لسانى على الفور كلما أخذ انسان يشكو لى هما له ، بدلا من أن يهز رأسه اقتناعا بها ويطيب خاطره ويشكرنى عليها أحس انه امتلأ بمرارة يأس تضاف الى همه ، جلله بواخ هيهات أن يغفر لى أننى سببه ، نطقت نظرته بالغيظ ، وربما بالكراهية ، هذا — أولا — وقع النصيحة على النفوس .

وكل الحكم مصوغة فى قالب نصائح ، يد الناصح هى العليا ، كأنها تملك الكون ، أين كل عقل وحنكة من عقلها وحنكتها .. ويد المستنصح هى الدنيا .. فارغة ، مفلسة ، سقيمة ، ذليلة بكونها غناجة ، لأنها محتاجة .. فكيف لا تكره اليد الدنيا اليد العليا التى تتعاظم عليها .. شاطرة لأنها على البر ، ثم — وثانيا — يقول لى الشاكى فى سره : جئتك بسرطان فوصفت لى قرص اسبرين .. وما شأنى أنا بهموم الآخرين ، هى ظن والثابت هو همى ، همى أنا ، طمعت أن أجد عندك الفرج لا نكدا فوق نكد .. بتحميلى أيضا هموم الآخرين .. المخرج عنده من مأزقه أن يلجأ الى التحدى . تقول لى نظرته بجرأة مفتعلة انه مستعد لأن يبادل همه بأى هم للآخرين ، اذ هم خيابة ، أما هو سيعرف كيف يختله ويكسر شوكته .

ما نلت من استخدام حكمة « من فكر فى بلوى غيره » الا أننى خسرت صاحبى بدلا من أن أكسبه ، فأعتزم الاحتراس من قادم مع غيره ، ولكننى أقع دائما فى عين المطب •

جميـع المقدمات مجعولة للفضفضـة بمخزون من فلسفة فارغة ، شبيهها صوت يصك الآذان ويزكم الأنوف ، وفى أغلب الأمر لا علاقة لها بصلب الموضوع ، لهذا أقرأ كتبا كثيرة بعد عدة صفحات من الفصـل الأول •• لأن المقدمة لابد ساحت عليه أيضا ، فاغفر لى ما تقدم من ذنبى وسخافتى وتعال الآن بكلام خفيف لجعل الحكمة اياها مثار ابتسام لا مثار فلسفة ، فهى تثب لذهنى فابتسم كلما كان الطلب منى أن املأ استمارة لاستخراج بطاقـة أو لتسجيـل نزولى فى فنـدق ، أجيب على سؤالها عن اسمى وتاريخ ميلادى بسهولة ، لا عن يقين بل عن اصطلاح بينى وبين الناس لا ينقضى تشككى فيه وعجبى منه • فاذا جئت نسؤالها عن « المهنة » تردد القلم فى يدى ونظرت فى وجه من يناولنى الاستمارة فى بلاهـة وخجل •• يا لها من بلوى ، حينئذ أعمد لتهوينها على نفسى الى التفكير فى بلوى الآخرين ، بلوى الصـديق صلاح طاهر مثلا لو كان مكانى •• ماذا يكتب ؟ • هل يقول « فنان » فيحسبه مناول الاستمارة ممثلا أو مخرجا للمسرح أو السينما ، وربما يحسبه أيضا من طقم الراقصين فى فرقة للفنون الشعبية ، وفيهم من لا يقل كرشـه عن كرش صلاح الآن •

ليس فى لغتنا اليوم كلمة عائمة مبهمة مختلطة سايحة مثل كلمة « فنان » •• اذن هى لا تصلح •• هل يقول « رسام » ؟ •• هذه الكلمة خرجت من التداول ، اختص بها رسام المساحة الذى يقيس حدود الأطيان ، واذا توكل على الله وقال : مصور •• فهل يضمن ألا يجيئه سؤال : مصور فوتوغرافى حضرتك ؟ •• هل يمكن أن يجيبه : لا بالزيت •• أو بالفحم ؟ •

حالى مهمـــا شق أخف من حـــاله ، أفكر فى بلواه فتهون بلوتى ، الحكمة اياها نفعت هنا •• فأنا أتردد رغم الابتسامة ماذا أقول •• هل أقول « كاتب » فلا أضمن أن يجيئنى سؤال : كاتب حسابات ؟ • كاتب طبونة ؟ كاتب عمومى أمام محكمة ؟ •• أم أقول : أديب •• الأدب صفة •• فهل يصلح أن يكون صنعة أو مهنة •• هل الأدب ثوب ألبسه عند الشغل ثم أخلعه عند الفراغ •• وماذا يبقى على جسدى ؟ • قلة أدب •• أم أقول : « مؤلف » فأتعرض لخيبة الأمل اذا نفيت لمناول الاستمارة بعد سؤاله أننى مؤلف أغانى ، ورأيت أن احترامه لى قد قل •• فأنت ترى أن لا مهنة لى تصلح للكتابة فى استمارة •• وأخيرا اهتدى الى الحل وأكتب « بالمعاش » لا أقصد أننى كنت موظفا ثم بلغت الستين ، بل اننى لا أزال أعيش •• وهى مهنة حلوة ولا ريب ! •

{ « التعاون » ، العدد ٣٧٥ ، ١٩٧٠/٤/٢٦ ، ص ٨ }

الفهـــرس

مؤلفات يحيى حقى

١ ــ **قنديل أم هاشم** ــ مع سيرة ذاتية للمؤلف .

٢ ــ **فجر القصة المصرية** ــ مع ٦ دراسات من نفس المرحلة .

٣ ــ **فكرة فابتسامة** .

٤ ــ **صح النوم** .

٥ ــ **خطوات فى النقد** .

٦ ــ **دمعة فابتسامة** ــ مع الدعابة فى المجتمع المصرى .

٧ ــ **دماء وطين** ــ مع قصص أخرى من الصعيد .

٨ ــ **تعـال معى الى الكونسير** ــ مع الكاريكاتير فى موسـيقى السيد درويش .

٩ ــ **ناس فى الظل** ــ مع شخصيات أخرى .

١٠ ــ **أم العواجز** .

١١ ــ **حقيبة فى يد مسافر** ــ ورحلات أخرى .

١٢ ــ **عطر الأحباب** ــ مع ٢٠ دراسة أخرى .

١٣ ــ **عنتر وجولييت** ــ مع ١٠ لوحات أخرى .

١٤ ــ **يا ليل يا عين** ــ سهراية مع الفنون الشعبية ــ مع مقالات السيرك والمولد

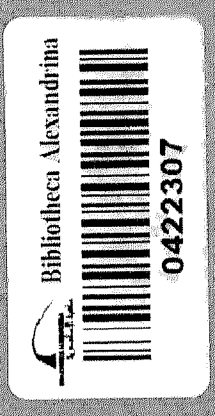
١٥ ــ انشودة للبساطة ــ مقالات فى فن القصة .
١٦ ــ خليها على الله .
١٧ ــ صفحات من تاريخ مصر .
١٨ ــ من فيض الكريم .
١٩ ــ الفراش الشاغر وقصص اخرى .
٢٠ ــ مدرسـة المسرح .
٢١ ــ هموم ثقافيـة .
٢٢ ــ تراب الميرى .
٢٣ ــ عشق الكلمـة .
٢٤ ــ من باب العشم .
٢٥ ــ فى السـينما .
٢٦ ــ هـذا الشعر .
٢٧ ــ فى محراب الفن (موسيقى ــ تشكيل ــ عمارة) .
٢٨ ــ كناسـة الدكان .

رقم الايداع ٧٧٣٢/١٩٩٠

الترقيم الدولى I.S.B.N. — 977 — 01 — 2555 — 5

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

عن طريق الأذن لا العين بدأ في طفولتي احساسي بتلك
اللحظة الجميلة الرهيبة معا : مولد الفجر وتردد أوائل
أنفاسه . فلا قيام للأسرة كلها من الفراش . ولا فتح
الشيش لأنه جرح للخلوة عندنا وعند الجيران .
ولا خروج الى الطريق إلا والشمس قد علت قصبة
ونصف على الأقل . (هذا القياس من قبيل التحسر على
أنني كنت لا أسكن الريف) .



٢٢٥ قرشا

مطابع الهيئة المصرية